مركز تدبر للدراسات والاستشارات تدبر

تدبر سورة القصص

ناصر بن سليمان العمر
رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

تدبر

تدبر سورة القصص

الحضارة
الطبعة الأولى

تَدَبُّرُ سُورَةِ القَصَصِ

تدبر

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة القصص

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

@tadabbor .... www.tadabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

تدبر سورة القصص / ناصر بن سليمان العمر - ط١ - الرياض، ١٤٣٨هـ

١٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٦-٤٠٣-٣

١- القرآن - سورة القصص - تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٠٤٣ / ١٤٣٨

رقم الإيداع: ١٠٤٣ / ١٤٣٨

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٦-٤٠٣-٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أمَّا بعدُ، فإنَّ خير الكلام كتاب الله، وجدير بخير الكلام أن يُتدبَّر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، حتَّى لا نقعَ فيما وقع فيه المنافقون فعاتبهم الله أشدَّ العتاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد].

وإنَّ من خيرة أنبياء الله - الَّذين بعثهم ونصَّ على كثير من أخبارهم في القرآن - نبيَّ الله موسى ﷺ، وهو الثَّالث من أولي العزم، وفي أخباره من العِبَر والعِظات ما اقتضى ذكره، بحيث لم تُذكر أخبار نبيٍّ مثله عليه الصَّلاة والسَّلام.

ومن أكثر المواضع بسطًا لأخباره الشَّريفة **سورة القَصَص**، وموضوعها من حيث تعلُّقه به أشرف من ذكر أخباره في مواضع أخرى؛ لكونها تعرَّضت- مع دعوته- إلى نشأته وشخصيَّته ﷺ، وكذلك حاله مع العلية من الأقوام، الملأ أرباب النُّفوذ سلطانًا أو مالًا، وحالهم مع دعوته.

ولأجل ما سبق فقد كانت لي دروسٌ في هذه السورة بمسجد خالد بن الوليد، ثمَّ يسَّر الله بعد تمامها استلال عِبَر منها، وتقديمها في ثلاثين حَلْقةً من حَلَقات برنامج ليدَّبَّروا آياته، الذي ألقيه عبر قناة المجد، في شهر رمضان من كلِّ عام، وقد كانت هذه الحَلَقات في سورة القصص عام ١٤٣٥هـ.

ثمَّ رأيت إخراجها على نحو ما ألقيتُه في القناة، بلغةٍ سهلة تناسب أكثر النَّاس، وتُقرِّب إليهم المراد، على طريقة ذكر فوائدَ مقتضَبة من الآيات، بعيدًا عن التَّطويل، وقد أغفلت كثيرًا من النَّقل، والكلام في دقائق المعاني، والنِّكات التي تناسب بعض طلَّاب العلم والمتخصِّصين، لكونها ربَّما ثقُلت على جمهور النَّاس.

وعلى ضوء هذه الرُّؤية قام المكتب العلميُّ باختصار الحَلَقات بعد تفريغها واقتناص فوائدها، مع تعديل ما لا بدَّ منه في الكتاب، ممَّا قد يُتسامح فيه أثناء الارتجال، إضافةً إلى توثيق ما لا بدَّ منه من النُّصوص الشَّرعيَّة.

ثمَّ وضعنا للكتاب هذه المقدِّمة وخاتمة.

ولا يفوتني التَّنبيه على أنَّ موضوع هذا الكتاب ليس تفسيرَ سورة القصص، وإنَّما هي فوائدُ ووقَفات وتنبيهات على أمور يحتاج إليها المسلم، ولاسيَّما الدَّاعية في حياته، أسمِّيها: وَقَفات تدبُّريَّة، وأيًّا ما كان اسمها فالمقصود هو أخذ العِبرة، وظهور الأثر، أمَّا التَّفسير فمبسوط في كتب أهل العلم، على مراتبَ ودرجاتٍ تناسب الخاصَّة والعامَّة.

ولا يفوتني هنا أن أشكرَ المكتب العلميَّ بمؤسَّسة ديوان المسلم الذي قام بإعداده، ومركز تدبُّر للدِّراسات الذي تولَّى مراجعته وإخراجه، وآمُل من كلِّ من وقف على ملحوظة أن يرسلها على بريد المؤلِّف، من أجل تلافيها مستقبلًا بإذن الله؛ ليكونَ شريكًا لنا في الأجر والثَّواب.

هذا، والله أسأل أن ينفعَنا بالقرآن، وأن يجعلَه حجَّة لنا لا علينا، وأن يوفِّقَنا لتدبُّره والدَّعوة إليه، وأن يرزقنا الصَّبر على ذلك، فهو المستعان وهو خير مسؤول، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله.

وكتب

ناصر بن سليمان العمر

يوم الاثنين ١٩/١١/١٤٣٧هـ

البريد الإلكتروني: naser@almoslim.net

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ●
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا
مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ● إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ
ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
● وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ● وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ●

سُورَةُ القَصَصِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ● تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ● نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ● إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ● وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ●

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ● وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ●
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ●
وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ●
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ
أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ● وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
● * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ
● فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ●

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ● وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ● قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ● قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ● فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ● فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ
● وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ●
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ●

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ● وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ● فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ● فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ● قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
● قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ● قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ●

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم
مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ
● فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ
ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ● وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ● ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ
بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ
فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ● قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا
فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ● وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا
فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ●
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ●

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ●
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ●
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ●
وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ● فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ●
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ● وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ● وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ●

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ● وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ● وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ●
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ● فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
● قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ● فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ●

۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ● ٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ● وَإِذَا يُتۡلَىٰ
عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ
مُسۡلِمِينَ ● أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ
بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ● وَإِذَا سَمِعُواْ
ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ
عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ● إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ●
وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ
نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا
مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ● وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن
قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ
بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ● وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ●

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ● أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ● وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ● قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ
مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ● وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ
● وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ●
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ● فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ
● وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ● وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ● وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ●

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
● قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ● وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ● وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ● وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ● ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ
فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ● وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ●

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ
مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ
وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ● فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا
مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ● وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ● فَخَسَفۡنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ● وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ
مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ
وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ● تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ
● مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ●

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ● وَمَا كُنتَ
تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ● وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ● وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ
كُلُّ شَىۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ●

تدبر سورة القصص

بين يدي السُّورة

يحسُن بنا قبل الشُّروع في تدبُّر سورة القَصَص أن نذكر مقدِّمة لها، تعرِّف بها، وتعين القارئ على التَّفكُّر فيها، فأقول وبالله التَّوفيق:

أوَّلًا: اسمها، ووجه التَّسمية:

اشتَهَرت تسمية هذه السُّورة بـ«سورة القَصَص»، وعُرفت بها في المصاحف وكتب التَّفسير، ولم يصحَّ لها اسم آخر[1].

وقد رُويت هذه التَّسمية عن ابن عبَّاس وابن الزبير ﷺ؛ قال ابن عبَّاس ﷺ: «نزلت سورة القَصَص بمكَّة»[2]، وقال ابن الزبير ﷺ: «أُنزلت سورة القَصَص بمكَّة»[3].

وقد سُمِّيت سورة القصص بذلك؛ لاشتمالها عليه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص].

قال ابن عاشور: «فالقصص الَّذي أُضيفت إليه السُّورة هو قصص موسى الَّذي قصَّه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصرَ قبل خروجه منها، فلمَّا حُكي في السُّورة ما قصَّه موسى كانت هاته السُّورة ذات قَصص لحكاية قصص،

---

(١) ينظر: «الدر المنثور» ٤٢١/١١، تفسير «التحرير والتنوير» ٦١/٢٠.

(٢) «فضائل القرآن» لابن الضريس ص١٧-١٨، «فضائل القرآن» للنحاس ص١١٦، «دلائل النبوة» للبيهقي، ١٤٢/٢-١٤٤.

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٣٨٩/٦، وعزاه لابن مردويه.

فكان القصص متوغِّلًا فيها، وجاء لفظ «القصص» في سورة يوسف، ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السُّورة»[1].

عدد آياتها:

«هي ثمان وثمانون آيةً في جميع العدد، اختلافها آيتان: ﴿طسٓمٓ ١﴾ [القصص]، عدَّها الكوفيُّ ولم يعدَّها الباقون، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، لم يعدَّها الكوفيُّ وعدَّها الباقون، وليس فيها شيء ممَّا يشبه الفواصل»[2].

وقت نزولها:

سورة القصص من السُّور المكِّيَّة كما نُقل عن ابن عبَّاس ﵄[3]، وتابعه المفسِّرون[4]، ويظهر ذلك أيضًا من موضوعاتها، ولكن اختُلف في آيات منها؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص:٨٥]، «قيل: نزلت على النبيِّ ﷺ في الجُحْفَة في طريقه إلى المدينة للهجرة؛ تسليةً له على مفارقة بلده. وهذا لا يناكد أنَّها مكِّيَّة؛ لأنَّ المراد بالمكِّيِّ ما نزل قبل حلول النَّبيِّ ﷺ بالمدينة، كما أنَّ المراد بالمدنيِّ ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكَّة.

وعن مقاتل وابن عبَّاس أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ إلى قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٥] نزل بالمدينة»[5].

---

(١) تفسير «التحرير والتنوير» ٢٠/٦١. والآية التي في سورة يوسف هي: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾.

(٢) «البيان في عدِّ آي القرآن» ص٢٠١.

(٣) سبق تخريجه في تسمية السورة.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٢٢٠، «زاد المسير» لابن الجوزي ٦/٢٠٠، «الدر المنثور» ٢٠/٦١.

(٥) تفسير «التحرير والتنوير» ٢٠/٦١.

والمشهور: أنَّ هذه الآيات نزلت بمكَّة في النَّجاشيِّ ورجال من القسِّيسين بعث بهم إلى مكَّة، لمَّا جاءته المهاجرة الأولى، قال ابنُ إسحاق: «قَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو بمكَّة عشرون رجلًا أو قريبٌ من ذلك، من النَّصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلَّموه وساءلوه، ورجالٌ من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلمَّا فرغوا من مساءلة رسول الله عمَّا أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلمَّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدَّمع، ثمَّ استجابوا لله وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصَف لهم في كتابهم من أمره، فلمَّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم الله مِن رَكب! بعثكم مَن وراءكم مِن أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرَّجل، فلم تطمئنَّ مجالسكم عنده حتَّى فارقتم دينكم وصدَّقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركبًا أحمقَ منكم! أو كما قالوا لهم، فقالوا لهم: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نَأْلُ أنفسَنا خيرًا»[1].

وقد قال الزُّهريُّ: «ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النَّجاشيِّ وأصحابه»[2].

مقصد السُّورة وأهدافها:

سورة القصص جاءت - كما يُنبئ عنه اسمها - بقصص؛ أي: أخبار، لأخذ العِبرة منها، وقد قامت على قصَّة موسى ﷺ مع فرعونَ من حين ولادة موسى إلى أن أغرق الله فرعون وجندَه في اليمِّ، ثمَّ خُتمت بقصَّة قارون - وهو من قوم موسى - وهلاكه، وإنَّما فُصِّل خبره في آخر السُّورة لإتمام العِظة بالقصَّة الَّتي جرت أحداثها أوَّلًا،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٢٤٥، وهو في «سيرة ابن إسحاق» ٤/٢٠٠.

(٢) السَّابق.

ولكون أخبارها أشرفَ في الجملة، فذُكرت أخبار قارون بعد أن استوفت الآيات القصَّة الأولى وعظاتها، وقد آتى الله تعالى قارون من الأموال ما إنَّ مفاتح خزائنها وحدها ليشقُّ على الجماعة القويَّة حملُها! وبين كيف كانت عاقبته لمَّا بغى وأفسد، وذلك كلُّه لبيان عاقبة الظَّالمين الباغين، وأنَّه لا فرق بين نسيبٍ قريب أو فرعون بعيد، متى طغى وبغى حقَّت عليه النِّقمة! يستوي في ذلك أصحاب الرِّئاسات والسِّياسات المتبوعين، كفرعونَ وهامان، وأصحاب الأموال والدُّثور كقارون. وإنَّ في السُّورة بشارات للمؤمنين المستضعَفين في الأرض، فلا غروَ أن كانت تلك السُّورة المكِّيَّة تثبيتًا للجماعة المؤمنة الَّذين تجهَّمهم القريب والغريب، وتقريرًا لحقائق التَّوحيد في قلوبهم، وتسليةً لهم فيما يجبَهون، مع كونها بشارةً لهم بمآلات عزٍّ وتمكين لهذا الدِّين.

والله تعالى كثيرًا ما يذكر «في السُّور المكِّيَّة من تثبيت أمر الرُّسل، وآياتهم، وبراهينهم، وحسن عاقبتهم، ومن ضلال مخالفيهم، وجهلهم، وغَيِّهم، وخِذلانهم، وسوء عاقبتهم ما فيه عبرة»[1].

فلا عجبَ أن نجد في ختام السُّورة - الآيات (٨٥-٨٨) - وعدَ رسول الله ﷺ بالعودة إلى مكَّة فاتحًا منتصرًا، «ينشر الهدى، ويقيم الحقَّ والعدل، ولكن العجب أنَّ هذا الوعد بالنَّصر جاءه وهو مُخرَج من بلده، مطارَد من قومه، مهاجرًا إلى المدينة ولم يبلغها بعد! فقد كان بالجُحْفَة قريبًا من مكَّة، قريبًا من الخطر، يتعلَّق قلبه وبصره ببلده الَّذي يحبُّه، ويقول عند فراقه مخاطبًا مكَّة: «إنَّكِ لَأَحبُّ أرضِ اللهِ إلى الله، ولولا أنَّ قومي أخرجُوني منكِ ما خرَجتُ»[2]. ويَعِده الله بالرُّجوع إلى مكَّة فيقول:

---

(١) «الجواب الصحيح» ٥١٨/٦.

(٢) أخرجه البزار في مسنده «البحر الزَّخَّار» ١٧/١١ وقال: «لا نعلمه يُروى بإسناد أحسن من هذا الإسناد».

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، ويبيِّن سبحانه أنَّ كلَّ ما دون الحقِّ فهو عُرضة للفناء، وأنَّ زِمام الحكم بيده تعالى.

وتُختَم السُّورة بهذه الآية إثباتًا للوحدانيَّة، ولإجلال القدرة الإلهيَّة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص]»[١].

وفي السُّورة أيضًا ما في السُّور المكِّيَّة؛ من التَّمهيد لأصول الدِّين الكلِّيَّة الَّتي اتَّفقت عليها الشَّرائع، من أمر التَّوحيد، واتِّباع الرُّسل، وأمر المعاد، والنَّهي عن الشِّرك، وتثبيت العقيدة في النُّفوس، ومن ذلك «إثبات قدرة الله تعالى ورعايته للمؤمنين، فهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتفرِّد بالحكم والقضاء، فقد آزر موسى وحيدًا فريدًا طريدًا، ونجَّاه من بطش فرعون، وأهلك فرعون وجنوده كما أهلك قارون وشيعته.

ولهذا تجد بين الخبرين - خبر فرعون، وخبر قارون - من التَّعقيبات ما فيه تقرير التَّوحيد وأمر الرِّسالة، وتعرض عليهم دلائل الصِّدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺ، وكيف يتلقَّاه فريقٌ من أهل الكتاب بالإيمان واليقين، بينما هم يتلقَّونه بالكفران والجحود، وهو رحمة لهم من العذاب لو كانوا يتذكَّرون!

مع مناقشة العوائق والاعتذارات السَّخيفة من نحو قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]! وتبيِّن الآيات أين يكون الأمن وأين تكون المخافة، وتجول مع المشركين الَّذين يواجهون دعوة الإسلام بالشِّرك والإنكار والمعاذير، تجول معهم جولات في شتَّى مشاهد الكون،

---

(١) «أهداف كل سورة ومقاصدها» د.عبد الله شحاتة ص٢٨١-٢٨٢.

وفي مشهد الحشر، وفيما هم فيه من الأمر، وفي أواخر ذلك يختم بأهمِّ سؤالين يتوجَّهان لكلِّ مكلَّف: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص]، وهو سؤال: لا إله إلَّا الله، ثمَّ يتبعه بالسُّؤال الثَّاني: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص]، وهو سؤال: محمَّد رسول الله، «وكان الله قد أخذ له ميثاقًا على كلِّ نبيٍّ بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدَّقهم، فأدَّوا من ذلك ما كان عليهم من الحقِّ فيه، يقول الله تبارك وتعالى لمحمَّد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١]، إلى آخر الآية، فأخذ الله ميثاق النَّبيِّين جميعًا بالتَّصديق له، والنَّصر له على من خالفه، فأدَّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدَّقهم»[1].

فخلاصة مقصد هذه السُّورة هو:

١- تثبيت أمر الرُّسل، وآياتهم وبراهينهم، وحُسن عاقبتهم، وبيان ضلال مخالفيهم وسوء عاقبتهم.

٢- تثبيت أتباعهم، وتسليتهم بذلك.

٣- تقرير التَّوحيد والتَّنفير من الشِّرك. وهذا المقصد من أجلِّ مقاصد القرآن الكريم.

وجلُّها يدور على المعنى الأوَّل، والله أعلم.

(١) «سيرة ابن إسحاق» ٢/١٠٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآيتان (١) و (٢)

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

• ابتدأ الله تعالى السُّورة بالحروف المقطَّعة الدَّالَّة على إعجاز القرآن الكريم، ثمَّ أشار إلى آياته للاهتداء بها، فهو كتابٌ من الله تعالى، بيِّنة آياتُه، مبيَّن لمن طلب هداه، فحقُّه صُراح، وسبيله واضحة، لا لبس ولا غموض فيه لمن تدبَّره قاصدًا الهدى.

ومن المطَّرد أنَّ أيَّ سورة بدأت بالأحرف المقطَّعة ففيها إشارة أو حديث عن القرآن.

الآية (٣)

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

• الله تعالى يتلو من أنباء ما قد سبق ما فيه عظةٌ وعبرة وبيان، ومن ذلك نبأ موسى وفرعون، قصَّ الله مواضعَ العبر فيه، وسكت عن أشياء، وكان ما قصَّه صدقًا محضًا لا يختلط بباطل، وخصَّ النَّبيَّ ﷺ ومِن ورائه أتباعه المؤمنين بتلك التِّلاوة؛ إذ غرض تثبيتهم وبيان حُسن عاقبتهم هو المقدَّم في السُّورة، ولأنَّهم أَولى النَّاس بالانتفاع من ذلك المتلوِّ.

• في توجيه الخطاب إلى النَّبيِّ ﷺ في قوله:﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ مزيد عناية بالخبر، وبشارة للنَّبيِّ ﷺ بهلاك الظَّالمين وتمكين المؤمنين، وفيه إشارة إلى أنَّ في الحقِّ الَّذي جاء به محمَّد ﷺ من ذلك ما لم يُسبَق إليه، أو يُنمى إلى علم الأمم الكتابيَّة.

• قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لانتشار أخبار أهل الكتاب الَّتي اختلط فيها الصِّدق بغيره، فجاء القرآن بالحقِّ الَّذي لا مِريةَ فيه، والَّذي يجب الإيمان به.

الآية (٤)

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾

• صدَّرَ تعالى القصَّة ببيان فساد فرعون؛ حيث علا في الأرض، وفرَّق أهلها، مستضعفًا طائفة منهم بأنواع الاعتساف الَّذي بلغ تذبيح أبنائهم والإبقاء على نسائهم للخدمة، ولذلك قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾، فقد صار الفساد منهاجًا له وسِمة.

• في الآية تأكيدٌ لتجاوز فرعون، وبيانٌ لمظاهرَ من فساده، منها الكِبْر والعلوُّ حتَّى بطر الحقَّ، وغمط النَّاس، وادَّعى الرُّبوبيَّة.

• بعض النَّاس يستعلي على المؤمنين؛ لأنَّ الله تعالى أنعم عليه بسُلطة، أو منصب، أو مال، أو جاه، ونحوه، وهذا فيه من صفات فرعونَ أو حاشيته الَّتي استحقُّوا عليها العقوبة.

• للكِبْر آثارٌ وَخيمة؛ منها: عدم قَبول الحقِّ، والاستعلاء على النَّاس، وسوء معاشرتهم، والاعتداء على حقوقهم. والله لا يحبُّ المتكبِّرين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾. [النحل] و«لا يدخُل الجنَّة مَن كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْر»[١].

---

(١) رواه مسلم (٩١).

- في قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ بيانٌ لخطر بثّ الفرقة بين الأمَّة الواحدة، وذمٌّ لأصحاب تلك المسالك.

- تصنيف النَّاس وتفريقهم بتُهَم باطلة، أو دَعاوى غير ثابتة، من عمل الطُّغاة المتكبِّرين في الأرض بغير الحقِّ.

- مَن فرَّق بين المسلمين، واستضعف طوائفَ منهم بغير جَريرةٍ ارتكبوها؛ ففيه شبهٌ من فرعون.

- على كلِّ أمَّة الحذر من الفساد في الأرض؛ فإنَّه ما حلَّ بأمَّة إلَّا كانت عاقبتها وَخيمة، كعاقبة فرعونَ وجنوده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨١﴾ [يونس].

الآيتان ﴿٥﴾ و ﴿٦﴾

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

- لمَّا بيَّن تعالى فساد فرعون، عطف عليه نتيجته؛ وهو إهلاك المفسدين الظَّالمين، وتمكين المؤمنين المستضعَفين، وقدَّم هذه لتعلُّق مقصد السُّورة الأعظم بها، وإن كان توريثهم الأرضَ يقتضي إهلاكَ المفسدين أوَّلًا.

- التَّعبير بالمضارع في الآية له دلالتان:

١- استحضار الحال الَّذي وقع فيه، وإن كان في الماضي؛ للاعتبار.

٢- الدَّلالة على التَّجدُّد؛ فكلَّما وُجد السَّبب وُجد المسبَّب، فإذا وُجد الفساد أعقبه التَّمكين لأهل الخير الصَّابرين، ولذلك لم يعيِّن الطَّائفة الَّتي استضعفها فرعون، بل عمَّم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها سنَّة ماضية، فمتى حدث استضعافُ طائفة مؤمنة مستعينة بالله صابرة، من طائفة باغية متجبِّرة؛ جاء التَّمكين لأهل الإيمان والصَّلاح، والسُّنن لا تتخلَّف، ومشيئته تعالى نافذة.

• في هذه الآية بشارةٌ من الله تعالى للمستضعَفين المظلومين بالتَّمكين لهم في الأرض، وجعلهم أئمَّة ووارثين، بعد أن كانوا مستذَلِّين مضطهَدين.

• وفيها أيضًا شفاءُ صدور المظلومين، حيث يُريهم الله تعالى زوال الظَّالمين، وكسر الطُّغاة المتجبِّرين.

• إن الأمَّة المستضعَفة وإن بلغت من الضَّعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستوليَ عليها اليأس، ولا أن تُخلدَ إلى الكسل؛ فقد نجَّى الله تعالى بني إسرائيل مع ضعفهم، من أسر فرعونَ وجبروته، ومكَّن لهم في الأرض.

• وطريق ذلك يبدأ بالموعظة والمطالبة بالكلمة اللَّيِّنة، ولا بدَّ من ذلك، فالأمَّة ما دامت ذليلةً مقهورة لا تطالب بحقِّها ولا تتكلَّم به، لا يقوم لها أمرُ دينها ودنياها، ولا تكون لها إمامة.

• متى أخذت الأمَّة بالأسباب نُصرت ومُكِّنت، فإنَّ وعد الله تعالى لعباده لا يتخلَّف، ولكن عليهم الأخذ بالأسباب الشَّرعيَّة والدُّنيويَّة لتحقيقه.

• وقد تحقَّقت هذه الآية في زمن النَّبيِّ ﷺ؛ حيث كانت كذلك عاقبة كفَّار قريش، وفرعونها أبي جهل، فكان زوالهم على أيدي المستضعَفين من المؤمنين الَّذين منَّ الله عليهم، ومكَّن لهم في الأرض.

• والمهمُّ أن نعرفَ كيف نتعامل مع القوى الظَّالمة؛ كما فعل النَّبيُّ ﷺ، مصاحبين حُسن الظَّنِّ بالله تعالى، والفأل الحسن، دائبين على العمل الصَّادق المدروس بحكمة وعلى بصيرة: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف].

الآية ﴿٧﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

• عطف تعالى هذه الآيةَ على بشارته للمستضعَفين، وفيه إشارةٌ إلى عدم استعجال تحقُّق وعد الله، فالله تعالى لطيفٌ، يُهيِّئ الأسباب، ويزيل الموانع، ويقدِّر بحكمته الأمر في وقته، والمهمُّ الثِّقة في موعود الله تعالى.

• أوحى الله تعالى إلى أمِّ موسى ﷺ، والمراد بالوحي هنا: الإلهام، وهو واردٌ تُرى فيه المصلحة، وينشرح له الصَّدر، بل قد لا يستطيع المرء دفعه. وللإلهام الحقِّ دلائلُ وعلامات، منها: معرفة صاحبه بالصِّدق والاستقامة، وموافقة الملهَم به للشَّريعة، فلا يكون تشريعًا جديدًا، وهو كرامةٌ من الله تعالى لمَن شاء من عباده الصَّادقين، وهو يختلف عن دَعاوى السَّحَرة والكهَّان.

• في الآية خبران، وأمران، ونهيان، وبشارتان؛ فالخبران: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾، والأمران: ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾، ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾، والنهيان: ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾، والبشارتان: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾، فحوَت هذه الآية القصيرة ذلك كلَّه، ممَّا يدلُّ على أنَّه كلام الله تعالى المعجِز في بلاغته عن الإتيان بمثله.

• يُستفاد من الآية: دفع الضَّرر المحقَّق بالضَّرر المشكوك فيه؛ فأمُّ موسى ﷺ حين خافت عليه من قتل فرعونَ له جعلته في تابوتٍ وألقته في اليمِّ.

• لطف الله تعالى بأمِّ موسى ﷺ، وتهوين المصيبة عليها بالبِشارة، وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة بثِّ التَّفاؤل الإيجابيِّ فيما يعتري الأمَّة، وكذلك أن نبثَّ التَّفاؤل والبِشارة عند كلِّ مُصاب تسليةً وتخفيفًا عليه.

• البشارة لا تعني عدم البلاء، فقد بشَّر الله تعالى أمَّ موسى ﷺ ولم يتوقَّف البلاء.

• قد يقدِّر الله تعالى على العبد بعض المشاقِّ؛ من أجل أن يُنيلَه سرورًا أعظم، أو يدفعَ عنه شرًّا أكبر.

• القرآن الكريم كثيرًا ما يصل الأخبار المحزنة بالأخبار المفرحة، فبعد أن أمرها بالأمر الصَّعب - وهو إلقاء موسى ﷺ في البحر - طمأنها وبشَّرها، فعلينا موافقةُ منهاجه في أخبارنا، ولاسيَّما فيمَن عظُمت مصيبته؛ لأنَّ النَّفس البشريَّة ضعيفة.

الآية ﴿٨﴾

﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾

• ترتَّب على إلقاء موسى ﷺ في اليمِّ أنِ التقطه آل عدوِّه فرعون، ولكن جعل الله تعالى ذلك سببًا ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا، فالخوف ليس عليه وإنَّما عليهم، وقد بيَّن تعالى سببه بأنَّهم كانوا خاطئين، واللَّام هنا في «ليكون» لام الصَّيرورة والعاقبة والمآل، لا لام التَّعليل.

• نفاذ إرادة الله تعالى بالتقاط آل فرعون موسى؛ ليتحقَّق مرادُه سبحانه في هلاكهم على يديه، لا تظهر حكمته البالغة أوَّل الأمر للنَّاس، وهكذا لا يلزم لإثبات حكمته تعالى في نافذ أقداره سبحانه أن نعلمَ وجهها في حينها أو في حياتنا، وحسبنا أن نؤمن بأنَّه تعالى حكيم عليم.

• لم يُبرِّئ تعالى حاشية فرعون وجنوده من فعائله، بل عطفهم عليه، وأشركهم معه في الخطيئات، فلا عُذرَ لهم؛ إذ إنَّه لم يظلم ولم يتمكَّن ملكه وفساده إلَّا بهم.

• التَّعبير بـ﴿ خَٰطِـِٔينَ ﴾ يدلُّ على أنَّهم غير معذورين؛ يقال: الخاطئ في العمد، والمخطئ في غيره.

الآية (٩)

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾

• هيَّأ الله تعالى امرأة فرعونَ لإقناع فرعون، فكانت سببًا لبقاء موسى الَّذي لم يكن في الحسبان! وهذا يستدعي اليقين بصدق وعد الله تعالى وإن لم نبصر أسبابه؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاس يتعاملون مع الأسباب ويُغفِلون المسبِّب سبحانه، ونحن مطالبون بعمل الأسباب والتَّوكُّل على الله، فالله يُجري منها ما يشاء وييسِّره.

• خاطبت امرأةُ فرعونَ زوجها بأسلوب حسن، فاستمالت قلبه أوَّلًا بقولها: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾، ثمَّ رفعت حاجتها بقولها: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾، ثمَّ خاطبته بأسلوب العقل فقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وقد تحقَّق لها ما أرادت بهذا الأسلوب الحكيم.

• أهمِّيَّة دعوة النَّاس بالأسلوب المناسب، فالنَّاس فيهم من يؤثِّر فيه الخير والأسلوب الحسن، ومَن لم ينفع معه الأسلوب الرَّقيق قد ينفع معه أسلوب العقل الحكيم، وعلى الدَّاعي التَّدرُّج في الأسلوب بحسب المدعوِّ وحاله، وإن لم يستجب له فقد يتقِّي بالأسلوب الحسن شرَّه.

- تُظهر الآية حاجة الأمَّة للمتفرِّسين فيمَن ينفعها؛ كفِراسة امرأة فرعون في موسى ﷺ، والعزيز في يوسف ﷺ، وبنت صاحب مَديَن في موسى ﷺ، وبَحيرى الرَّاهب في نبيِّنا ﷺ، وهذه مسؤوليَّة المعلِّمين والمربِّين، فعليهم أن يتفرَّسوا في النَّاس من يصلح لأن يتأهَّل فينفع الأمَّة ويوجِّهها.

- إيواء من كانت به حاجة، كمَن ليس له أب يُعرف أو أمٌّ ونحوه، والإحسان إليه، من كريم الأخلاق، ومن التَّكافل الاجتماعيِّ الَّذي جاء به الشَّرع، وهو جار في النَّاس كافرهم ومسلمهم كما أشارت إليه هذه الآية.

- أهمِّيَّة الحكمة في الوصول إلى المراد، فاستخدام الحكمة مع العاطفة والعقل يحقِّق النَّتائج بإذن الله تعالى، والأمَّة بحاجة إلى الجمع بين الشَّرع والعقل والعاطفة حتَّى تدركَ مقاصدها، والعقل الصَّريح الخالي من شوائب التَّأثُّر الفكريِّ الفاسد لا يعارض النَّقل الصَّحيح من الكتاب والسُّنَّة.

- علينا أن نعلم أنَّ الأسباب المادِّيَّة لا تمنع من نفاذ إرادة الله تعالى، فمع حرص آل فرعونَ على قتل بني إسرائيل؛ كانت نهاية حكمهم على أيديهم.

- كثيرٌ من كيد الكافرين يعود تدميرًا عليهم، وعلى أممهم ومجتمعاتهم، يظنُّون أنَّ انتفاعهم إنَّما يكون بذلك التَّدبير وتلك النُّظُم، وفيها عطبهم! وهكذا كانت تربية موسى ﷺ في بيت فرعون؛ كان يرجو نفعه، فكان سببَ إهلاكه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

الآية (١٠)

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ
قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

• بعد أن ألقت أمُّ موسى ﷺ ابنها في اليمِّ، أصبح فؤادها فارغًا من كلِّ شيء إلَّا منه ﷺ، وهذا طبع النَّفس البشريَّة، ولولا أنَّ الله ثبَّتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين بوعده، لأبدت ولهها على ابنها وصرَّحت بمكانه.

• عند لحظة طارئة قد تضيع الفكرة وتستغرق بعضهم اللَّحظة، فيتصرَّف تصرُّفًا خاليًا من النَّظر في عاقبته وآثاره، فتزيد المشكلة ويضيق المخرَج، والواجب الاستعانة بالله تعالى، ولحظ الحكمة، والأناة في التَّصرُّف.

• من عناية الله تعالى بعباده المؤمنين تثبيتُهم عند المصائب، والرَّبط على قلوبهم.

الآية ﴿١١﴾

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

- بعد أن ربط الله تعالى على قلبها هدأت وزادت يقينًا بوعد الله تعالى، ولكنَّها لم تترك الأخذ بالأسباب، فأمرت أخته بتتبُّع خبره.

- «بصُرَت به عن جُنُب»؛ أي: أبصرته عن بُعد، فلم تقربه، وكأنَّها لا تعرفه، ولذلك قال:﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ ويؤخذ منه: جواز المراقبة للمصلحة ودفع الضَّرر، وأمَّا التَّجسُّس وهتك السِّتر وتتبُّع العورات فلا يجوز.

الآية ﴿١٢﴾

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

• قدَّر الله تعالى في نفس الطِّفل الامتناعَ عن المراضع؛ ليُضطرَّ آل فرعونَ إلى البحث عن مُرضعة له، وهذا من حكمته سبحانه ورأفته بأمِّه.

• اتَّبعت أخته سبيل التَّلطُّف والتَّعريض للوصول إلى المراد، فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وكأنَّها تستأذن في النَّفع ولا تطلبه، وقالت: ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ بتنكيرهم، مع أنَّها تقصد أمَّهما، وقالت: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؛ أي لأجلكم، ولم تقل: يُرضعونه أو يكفلونه دون نسبة ذلك لمصلحتهم؛ حتَّى لا تُثير ريبتهم، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ لأنَّه منكم، أو لأن النُّصح من سجاياهم، وقيل: قالت: (وهم له)؛ عَنيتُ لفرعون؛ إبعادًا للتهمة، وهذا دليلٌ على حكمتها وعقلها وبُعد نظرها.

• لا بدَّ لك من الإيمان بالله تعالى، والثِّقة بوعده، وحسن الظَّنِّ به، والتَّسليم لحكمته، وتأمَّل: وُلد موسى ﷺ في السَّنة الَّتي يُقتل فيها أبناء بني إسرائيل، خلافًا لأخيه هارون، ومع ذلك تركوه، بل دأبوا يبحثون له عن مُرضعة! فتركوه لأهله يربُّونه في بيتهم وهم لهم ممتنُّون! ثمَّ كان هلاك فرعونَ وزوال ملكه على يديه.

الآية ﴿١٣﴾

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

- ردَّ الله تعالى موسى ﷺ إلى أمِّه إقرارًا لعينها، وإذهابًا لحزنها، ولتثق بوعد الله تعالى.

- وعدُ الله تعالى لهذه الأمَّة كائنٌ لا محالة، فإذا توافرت الأسباب وزالت الموانع جاء نصره، وعلينا - إن لم نبصر طلائعه - ألَّا نيئسَ من وعد الله تعالى، بل نعمل على إزالة الموانع لأسباب نصره سبحانه، ثمَّ هو قادمٌ من حيث أبصرنا أو لم نبصر.

- حكمة الله تعالى في أفعاله بالغة، ومع ذلك فالمبصرون لها قد يكونون قلَّة، وقد يكون الأمر في ظاهره كريهًا، لكنَّ عاقبته محمودة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء].

الآية (١٤)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾

• في الآية إشارةٌ إلى أنَّ النُّضج العضويَّ والعقليَّ من مهمَّات التهيئة لمصاعب التَّكليف، ولاسيَّما فيمَن سيكون متبوعًا.

• جمع تعالى بين إيتائه العلم والحكمة، وتلك نعمةٌ قد كانت له ﷺ قبل النُّبوَّة، وهذا ممَّا يدلُّك على فضل موسى ﷺ، فقد أثنى الله على أنبياء كثيرين بالحُكم والعلم كداود وسليمان ولوط ويوسف عليهم السلام، ولكنَّ سياق الآيات كان في حالهم بعد النُّبوَّة، وهم لم يخلوا منهما قبلها، إلَّا أنَّ موسى بلغ منزلة في ذلك رفيعة، لذا نصَّ عليها.

• قدَّم الحُكم على العلم في عامَّة المواضع؛ وذلك لأنَّ العلم بلا حكمة لا يفيد، ولهذا قالوا: الحكيم الَّذي يعمل بما يوجبه العلم، ولأنَّ الإصابة في الحكم والعمل هي مقصود العلم، فقدَّم المقصود تنويهًا به.

• من النَّاس من قد يكون عالمًا ولا يكون حكيمًا، فلا تصدُر عن رأيه، أو تحفِل به كثيرًا.

• الحكمة مستلزمة للعلم عند القدرة عليه، وهذا يُظهر أهمِّيَّة العناية بالعلم والحكمة.

• الإحسان يقود إلى كلِّ خير، فإحسان موسى ﷺ كان سببًا في إعطاء الله تعالى إيَّاه العلم والحكمة، وكذلك النُّبوَّة، فالخير كلُّ الخير في الإحسان: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ ﴾ [الرحمن].

• على الدُّعاة وأهل العلم الاجتهاد في الإحسان؛ فإنَّ هذا منهج قدواتهم من الأنبياء عليهم السلام، وهو ظاهرٌ في نبيِّنا محمَّد ﷺ قبل بعثته؛ كما في قصَّة خديجة رضي الله عنها لمَّا قالت: «والله لا يُخزيكَ الله أبدًا»... الحديث.

الآية ﴿١٥﴾

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾:

• الحكيم العالم قد يزلُّ، وقد يخطئ في التَّقدير، فالمعصوم من عصمه الله، لكنَّ الفرق بينه وبين غيره: أنَّه يتدارك.

• يحسُن اغتنام فرصة غفلة النَّاس - كمنتصف النَّهار - لقضاء الحوائج بيُسر، وهو يختلف من زمنٍ إلى آخر، ومن بلدٍ إلى غيره.

• دخول موسى ﷺ المدينةَ متوجِّسًا يُفهم منه أنَّه بدأ يُعرف بمنهج يخالف فرعون، وهو لازم كونه من المحسنين؛ ولذلك استعان به الإسرائيليُّ، ولو كان لا يعرف إلَّا أنَّه من بيت فرعون ما استعان به.

• موسى ﷺ فارق فرعون لمَّا رآه على ظلم وبغي ومخالفة للحقِّ، وتخلَّى عن امتيازاته الَّتي وجدها في قصره وملكه؛ ولذلك وصفه تعالى بأنَّه من المحسنين، والمحسن لا يرضى بالظُّلم ولا يقرُّه أو يسكت عنه، فضلًا عن أن يكون متمتِّعًا بامتيازات الظَّالمين، أو مشاركًا لهم في ظلمهم، أو مدافعًا عنهم.

• الانتباه إلى خطورة العصبيَّة، فقد تجرُّ إلى أمر محرَّم إذا لم تُضبط بالشَّرع والعقل؛ ولذلك تكرَّر قوله: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، فحميَّة موسى ﷺ لهذا الرَّجل وقهر الظُّلم الَّذي يراه جعله يقع في هذا الخطأ الَّذي تاب إلى الله ﷻ منه.

• إذا انتشر الظُّلم ورسَخ أصبحت لدى المظلومين قابليَّة للاستفزاز وردِّ الفعل وإن تجاوزه خطأ.

• الظَّالم المعروف بالظُّلم المشتهر به يقف ضدَّه محبُّ العدالة، بل قد يستعجل بعضهم فينصر عليه ظالمًا له، بسبب الخلفيَّة التَّاريخيَّة الَّتي رسخت أنَّ هذا ظالم مستبدٌّ، وأنَّ هؤلاء ضعفاءُ مستضعَفون.

• قتل النَّفس المعصومة مستقبَح دينًا وعقلًا، وإنَّ حفظ الدِّين والنَّفس والعقل والعِرض والمال ممَّا أجمعت عليه الشَّرائع السَّماويَّة.

• لم يسوِّغ موسى ﷺ قتلَه القِبطيَّ مع كونه مشركًا، بل تاب منه، ومنه تعلَمُ ضلال الَّذين يسوِّغون قتل النُّفوس المسلمة بالتَّأويلات الباطلة.

• قتل الكافر الَّذي له عهدٌ لا يجوز، ومن جنسه الكافر الآمن الَّذي دخلتَ بلده بتأمينه وعلمه، وإن كان فيه جَورٌ، فإنَّ موسى ﷺ عدَّ قتله الكافر ذنبًا واستغفر الله منه، ويعتذر عن الشَّفاعة الكبرى يوم القيامة بسببه، ويقول: «إنِّي قد قتَلتُ نَفْسًا لم أُومَرْ بقَتلِها»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧١٢).

• وجوب التَّقيُّد بضوابط الشَّريعة، والبعد عن الانسياق مع العاطفة دون مراعاة للشَّرع، ففي حُكم العاطفة: يستأهل القِبطيُّ الضرب، وما فعله موسى ﷺ مع هذا القِبطيِّ الظَّالم لا ذنبَ له فيه، ولاسيَّما أنَّه لم يُرد قتله وإنَّما دفعه.

• أهمِّيَّة تجديد الاجتهاد وإعادة النَّظر في النَّوازل، دون اكتفاء بالخلفيَّة السَّابقة والنَّظرة الأولى.

الآيتان: ﴿١٦﴾ و ﴿١٧﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

• سرعة الأوبة من صفات الصَّالحين، تأمَّل كم بين قوله: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾! كأنَّه حذف أداة العطف إيذانًا بشدَّة القرب، وقرن ذلك بالاستغفار والتوبة.

• لا يجوز لأحدٍ أن يكون ظهيرًا للظَّالمين وللمجرمين حسًّا أو معنًى، بالقول أو الفعل أو السُّكوت، فموسى تبرَّأ من ذلك كلِّه، بدلالة التَّكرة المنفيَّة، والسِّياق يبيِّن أنَّ ذلك من واجب شكر النِّعمة.

• جعل جمهور السَّلف هذه الآية حجَّةً على منع معاونة أهل الجور في شيء من أعمالهم.

• من مظاهرة الظَّالمين: الدِّفاع عنهم، والبحث لهم عمَّا يسوِّغ أفعالهم دون مستند شرعيٍّ صحيح قد رعاه الظَّالمون أو التفتوا إليه.

• إذا كانت هذه الآية تقتضي منع مظاهرة الظَّالمين؛ فإنَّ أوَّل من يدخل فيهم الكافرون، فلا ظلم أعظم من الشِّرك، والَّذين يظاهرونهم على المؤمنين على خطر عظيم.

الآيتان: ﴿١٨﴾ و ﴿١٩﴾

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

• الَّذي يقع في محظور من الأنقياء - وإن وقع منه خطأ لا عمدًا - لا يقرُّ له قرار، بخلاف من استمرأ المعصية وأُشرب الفساد.

• وقوع الخوف الجِبلِّيِّ من موسى ﷺ لا يُؤاخَذ عليه، ما دام لم يقدِّمه على مقتضى الإيمان، والخوف المحرَّم من المخلوق هو الَّذي يخرج به إلى تعظيمه وإنزاله منزلة الرَّبوبيَّة كخوف السِّرِّ، وكذلك خوفه الخوف الَّذي يقدَّم على مقتضى أمر الله ونهيه، فهذا قد نُهي عنه المؤمنون؛ كما في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران].

• ذمُّ من يُكثر المشكلات والتَّشكِّي، ويتسبَّب في أعمالٍ كان الأولى به تجنُّبها؛ لعدم قدرته على تحمُّل عواقبها.

• لا تعني توبة موسى ﷺ من القتل عدمَ انتصاره للمظلوم؛ فهو أراد البطش بظالمه لدفعه، ولم يُرد قتلَه أو التسبُّب فيه.

• يجدُر بالمصلح الاتِّصاف بالرِّفق واللِّين والتَّثبُّت، وألَّا يتدخَّل لطرف دون آخر، إلَّا لدفع ظلم ظهر له، ويسعى ما استطاع في التَّوفيق وإزالة أسباب الاختلاف.

• على من يحمل همَّ الدَّعوة والإصلاح أن يكون حذرًا، وينتبه لأفعاله، ولا يتصرَّف بما لا يليق به؛ فإنَّ هذا يؤثِّر في دعوته وفي قَبول النَّاس له.

• الَّذي يقتل النُّفوس المعصومة بغير حقٍّ يعدُّ من الجبَّارين الَّذين يفسدون في الأرض إذا كان متعمِّدًا، وإن زعم أنَّه يريد الإصلاح فإنَّه كاذب وهو مفسد.

الآيتان: ﴿٢٠﴾ و ﴿٢١﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

- الرُّجولة أدعى لصفات الكمال من نحو: النَّجدة، والكرم، ورفض الظُّلم، وتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة.

- بمقدور كلِّ إنسان أن يتَّصف بمقتضى صفات الرُّجولة، وأن يتحلَّى بها، فيأخذَ بزِمام المبادرة والجِدِّ، والتَّحمُّل لبُعد الشُّقَّة.

- قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ لأنَّ تأخُّره قد يؤدِّي إلى القبض على موسى ﷺ وقتله، فيتحمَّل شيئًا من إثم التَّقصير في واجب نجدته، وفيه دليل على أهمِّيَّة المبادرة، ولاسيَّما في الأعمال الَّتي يفوِّت التَّأخُّر فيها المصلحة.

- مبادرة هذا الرَّجل لإخبار موسى ﷺ بما قد يضرُّه أنقذته من القتل، ومن قبلها مبادرة امرأة فرعونَ في النَّهي عن قتله، وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة المبادرة بالخير في جميع نواحي الحياة.

• لا يجوز لمسلم أن يكتم خبرًا يؤدِّي كتمُه إلى إلحاق الضَّرر بالآخرين، ولاسيَّما فيما يتعلَّق بالعلماء والدُّعاة والمصلحين، بل يجب عليه أن يبادرَ إلى تبليغهم بأيِّ طريقة ممكنة، ولا يحتجُّ بخوف الضَّرر على نفسه، فلن يَعدَمَ وسيلة يمنع أو يخفِّف بها الظُّلم عن المظلوم دون إلحاق ضررٍ بنفسه، ومن قصد وجه الله تعالى في ذلك حماه.

• إذا خاف الإنسان على نفسه القتل فإنَّه لا يسلِّمها ويسعى في أسباب النَّجاة، فإن تزاحمت مفسدتان ارتكب الأخفَّ منهما، فموسى ﷺ فرَّ من التَّهلكة المتحقِّقة وهي القتل، إلى تهلكة محتملة وهي جهله بالطَّريق.

• من يتأمَّل ما يفعله الملأ المتكبِّرون، والحاشية في بيوت الطُّغاة والظَّالمين، يجد الشَّبه والتَّناسب بين ما هم عليه وما عليه أسيادُهم المتكبِّرون الطُّغاة.

• من اشتَهر بالإصلاح ضاق به الملأ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ فالمصلح يضيق به الظَّالم وعِلية القوم معه. وفي حالة موسى ﷺ تحيَّنوا فرصة، ولو كان موسى ﷺ رجلًا عاديًّا لما احتاج الأمر إلى مؤامرة؛ ففِرعونُ كان يقتل بني إسرائيل قتلًا جماعيًّا دون حاجةٍ إلى تدبير واختفاء، لكنَّ لموسى شأنًا وحُظوة سابقة، وله مع ذلك دعوةٌ ومدعوُّون، وقتل موسى ﷺ دون سبب ظاهر مدعاة للإيمان بما يدعو إليه، كما حدث في خبر أصحاب الأُخدود، تزيد عناية النَّاس به ويتساءلون عنه وعن دعوته ويتعاطفون معه، وهذا انتصارٌ للمصلح.

• على الدَّاعية أن يكون حذرًا من أن يرتكب عملًا يكون مسوِّغًا مقنعًا للنَّاس بصواب القضاء عليه، ثمَّ على دعوته.

• الظَّلمة الطُّغاة كثيرًا ما يقدِّمون مسوِّغات لجرائمهم، ويكون السَّبب الحقيقيُّ عند الظَّالم ليس ما سوَّغ به جُرمه، لكنَّه يريد ضرب الإصلاح الَّذي يهدِّد مصالحه! وأمَّا الذَّريعة الَّتي تذرَّع بها فتعلم أنَّها غير صالحة عندما تجدها منتشرةً في مجتمعه وهو لا يحرِّك ساكنًا! ولكن يلتفت إليها فقط إذا باشرها مَن يمثِّل خطرًا على أوضاع الظَّالمين، فعندئذٍ يتذرَّع بكلِّ وسيلة!

• لم يكتفِ الرَّجل - الَّذي أخبر موسى ﷺ - بالإخبار، بل دلَّه كيف ينجو، وأظهر له النُّصح، وذلك من حكمته؛ لأنَّ الإنسان إذا أُعطي خبرًا مفاجئًا مفجعًا فقد يتصرَّف تصرُّفًا خاطئًا وتستغرقه اللَّحظة الحاضرة، والمرء كما أنَّه يحتاج إلى الخبر المحذِّر له ممَّا قد يلحقه، فإنَّه يحتاج أيضًا إلى الدَّلالة على المخرَج السَّليم منه.

• أهمِّيَّة المبادرة إلى نصيحة من يغلب على الظَّنِّ لَحاق ضرر به، وبذل المشورة له، فقد أشار الرَّجل على موسى ﷺ بالخروج من المدينة لخوف الضَّرر عليه دون أن يطلب منه، وقد أخذ بمشورته موسى ﷺ.

• تخلُّق الدَّاعية بالأخلاق الحسنة، وحسن معاملته للنَّاس؛ يترك أثرًا في قلوبهم، فاتِّصاف موسى ﷺ بذلك جعل له من يؤيِّده ويدافع عنه برغم نشأته في بيت فرعون.

• إذا خاف مظلومٌ على نفسه، وتأكَّد لديه لَحاق الضَّرر به، ولاسيَّما فيما يتعلَّق بالقتل؛ فإنَّه يُشرع له الهرب، فقد خرج موسى ﷺ ومن بعده نبيُّنا ﷺ لمَّا تآمروا على قتله، وخرج إبراهيم وخرج غيرهم عليهم الصَّلاة والسَّلام.

• كما أنَّ على الدَّاعية السَّعي في الإصلاح والدَّعوة إلى ما ينفع النَّاس، فإنَّ عليه أيضًا أخذ الحذر من أعدائه؛ كما في قوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

• هناك فرقٌ بين الخوف والحذر، فقد نهى تعالى عن الخوف القلبيِّ من الخلق وما يسبِّبه ذلك من ترك الواجب؛ فقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وتجاوز عن الخوف الجِبِلِّيِّ كخوف موسى ﷺ من القتل، وأمر بالحذر من العدوِّ؛ فقال: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، والحذر هو: توقِّي الضَّرر المظنون أو المتيقَّن، أمَّا الخوف فهو: توقُّع نزول الضَّرر المشكوك فيه.

• يجب على الدَّاعية تعليق قلبه بالله تعالى في السَّرَّاء والضَّرَّاء، والالتجاء إليه دائمًا، وهذا ينفعه لمَّا يواجهه الأعداء، وتنزل عليه المصائب، فيجد النَّجاة عند المِحَن، وفي الحديث: «تعَرَّفْ إليهِ في الرَّخاء؛ يَعرِفْكَ في الشِّدَّة»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ٥/١٨ حديث رقم (٢٨٠٣).

الآيات: (٢٢) - (٢٨)

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ
مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ
(٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
(٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ
الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ
حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي
إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ
فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾

- دعا موسى عليه السلام ربَّه أن يهديَه، فهداه الله تعالى سواء السَّبيل حسًّا ومعنًى، وإذا علم الله تعالى صدق الإنسان وبذله جهده دلَّه وهداه إلى ما ينفعه ويُنجيه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت].

• على من يتكلَّم في العلم وينظر فيه أن يستهديَ ربَّه تعالى، ويسأله بلوغ الصَّواب بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فإنَّ الله تعالى لا يخيِّب مَن هذه حاله.

• الأصل في المرأة القرار في البيت وعدم الخروج إلَّا للحاجة، فإن خرجت فلا يكون تعاملها مع الرِّجال إلَّا بقدر الحاجة، ووفق الضَّوابط الشَّرعيَّة، ويدلُّ على ذلك من قصَّة موسى مع المرأتين ما يأتي:

١- أنَّ موسى ﷺ لمَّا رأى المرأتين قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فكأنَّه استغرب وجودهما واقفتين ناحية من النَّاس.

٢- وقوفهما بعيدًا عن الرِّجال كما في قوله: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، وهذا دليلٌ على منع الاختلاط، فالوقوف في الشَّمس، مع رعاية الغنم، وانتظار فراغ النَّاس، مشقَّة لا يلتزمها إلَّا مضطرٌّ إليها.

٣- قوله: ﴿تَذُودَانِ﴾ وذلك منهما قطع لأيِّ سبب يؤدِّي إلى الاختلاط، فإنَّهما تحوطان غنمهما حتَّى لا تختلط بغنم الآخرين، فتحصل الحاجة إلى القرب من الرِّجال.

٤- الإجمال في الحديث، والاقتصار على قدر الحاجة، فلم يجرِ بين موسى ﷺ وبينهما سوى قوله: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، وقد أجملتا الحديث ببيان العلَّة؛ وهي الامتناع عن السَّقي حتَّى ينتهي الرِّجال، وأنَّه ما أخرجهما إلَّا كبَر والدهما وضعفه.

٥- سقى لهما موسى ﷺ على ما أصابه من الرَّهَق جرَّاء السَّير الحثيث في السَّفر المخوف؛ تقديرًا لموقفهما، ثمَّ لم ينتظر أجرًا منهما، وإنَّما تولَّى إلى الظِّلِّ يسأل ربَّه من فضله.

٦- جاءته إحدى الفتاتين وهي تمشي على استحياء، ولم تأتيا معًا كما كان من شأنهما في السَّقي، وإحاطة الغنم، وهذا يدلُّ على أنَّ خروجهما بحسب الحاجة.

٧- نسبت الدَّعوة لأبيها، وبيَّنت السَّبب قطعًا لسُبل الرِّيبة وخواطر النُّفوس، ومشى معها موسى ﷺ دون كثير كلام وأخذ وعطاء.

٨- بخلاف شأنه مع المرأة أفاض موسى ﷺ مع أبيها في الكلام، وقصَّ عليه كلَّ القصص، وقد قال له مستوعبًا حديثه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾، وفي هذا إشارة إلى أنَّ التَّوسُّع في الحديث يكون مع الرِّجال، وأمَّا النِّساء فالكلام على قدر الحاجة، فموسى ﷺ لم يتكلَّم معهما إلَّا بكلام يسير من نحو قوله: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾.

٩- عرضت إحدى الفتاتين على أبيها استئجار موسى ﷺ ولم تحدِّد نوع الأجرة، واقتراحها استئجار موسى ﷺ جاء متَّسقًا مع الحرص على عدم الخروج من البيت واختلاطهنَّ بالرِّجال، ولكونها تفرَّست من أحوال موسى ﷺ قوَّته وأمانته.

١٠- عرض والد الفتاتين على موسى ﷺ تزويجه إحدى بنتيه عِوضًا عن أجرته، ولم يسمِّ له أجرةً من الغنم؛ وإنَّما عرض عليه الزَّواج حتَّى يصير من أهل البيت، وليعفَّ ابنته، ولأنَّ الرَّجل القويَّ الأمين الصَّالح مَغنمٌ عند العقلاء وإن ضاقت به الحال وقتًا ما.

- في الآيات استحبابُ المبادرة إلى عمل الخير، فهو سببٌ للخير في الدُّنيا والآخرة؛ كما في مبادرة موسى ﷺ إلى سقي غنم المرأتين.

• وفيها الرَّحمة بالخلق، وأنَّ الإحسان إلى من يعرف ومن لا يعرف من صفات الأنبياء عليهم السلام.

• من تمام الإحسان ألَّا تطلب أجرًا على فعل الخيرات وإن كنت محتاجًا، فقد شكا موسى ﷺ حاله إلى ربِّه تعالى، ولم يطلب جزاء سقيه برغم حاجته، ولم يسأل النَّاس شيئًا، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة أنَّ من أحسن إلى أحدٍ ثمَّ طلب منه الدُّعاء فقد استوفى أجره.

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّ دعاء العبادة أعظم من دعاء المسألة، فموسى ﷺ أظهر فقره إلى ربِّه ولم يصرِّح بحاجته؛ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ وما أقربَ إجابةَ الله تعالى له! ﴿فَجَآءَتْهُ﴾ والفاء تُشعر بقرب ما بين الدَّعوة ومجيئها، وقد حصل له الأمن، وحصل له أيضًا الشِّبع والإيواء والزَّواج، وذلك أعظم ما يُطلب.

• على المسلم أن يستشعرَ افتقاره إلى ربِّه وحدَه، ويستغنيَ بذلك عن سؤال ما في أيدي النَّاس، وعلى ذلك بايع النَّبيُّ ﷺ صحابته؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه.

• في الآيات استحبابُ مكافأة صاحب المعروف عليه، ولاسيَّما إن استفرغ جهده؛ كما في قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

• يحسُن بالمرء تسكين رُوع من نزل به الضُّرُّ أو أُخيف؛ كما في قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

• استحباب تقديم المشورة والرَّأي الرَّشيد لمن يحتاج إليهما؛ كما في قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

• على المرء أن يكون نبيهًا، فيأخذَ من الجزئيَّات ما يدلُّه على الكلِّيَّات، كما أخذت المرأة من سقي موسى ﷺ لهما، عفَّته واتِّصافه بالقوَّة والأمانة.

• ما أحوجَ القدواتِ والمربِّين إلى دقَّة الملاحظة مع أبنائهم وتلاميذهم في معاشرتهم؛ لاستغلال مكامنهم وتوجيههم إلى ما ينفعهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر].

• صاحب مَديَن ليس هو شعيبًا نبيَّ الله تعالى على الرَّاجح؛ لأنَّ الله تعالى قد أهلك من كفر من قومه، وأنجى المؤمنين به، ولا يليق بهم أن يسقوا أغنامهم ويدَعوا بناتِ نبيِّهم ينتظرنَ فراغهم، ولكون نبيِّ الله شعيبٍ قريبَ العهد بنبيِّ الله لوط، وذلك قبل موسى بمُدَد؛ فقد قال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود].

• في الآيات جوازُ خروج المرأة عند الحاجة، إذا أُمنت الفتنة؛ كما خرجت المرأتان لسقي الغنم عند تعذُّر قيام أبيهما به.

• وفيها جوازُ محادثة المرأة للرَّجل في الحاجة إذا أُمنت الفتنة.

• وفيها جوازُ عمل المرأة خارج بيتها، إذا وُجدت الحاجة، وانضبط عملها بالضَّوابط الشَّرعيَّة.

• وفيها مشروعيَّةُ عرض الوليِّ موليِّته على من يتزوَّجها إذا كان كفُؤًا.

• وفيها جوازُ أن يكون الصَّداق عملًا، ولا يُشترط أن يكون عينًا، وجواز تأخيره أو تقسيطه إذا كان ذلك برضا الطَّرفين.

• وفيها جوازُ أخذ العِوَض على العمل ولو لم يقصده الإنسان؛ فموسى ﷺ عندما سقى لهما لم يكن يريد الأجر، وإنَّما الإحسان إليهما.

• وفيها أنَّ معيار الأهليَّة للولايات القوَّة والأمانة، ويتفاوت ذلك بحسَب الولايات، وأنَّ من لم تكن له قوَّة على العمل أو لم يكن مؤتمَنًا، فليس بأهل لأن يتولَّاه.

• وفيها إشارةٌ إلى اشتراط الوليِّ في النِّكاح، وليس للمرأة إنكاحُ نفسها؛ لقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾.

• وفيها جوازُ اجتماع الإجارة والنِّكاح في عقدٍ واحد؛ لقوله: ﴿أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾.

• وفيها جوازُ عقد الإجارة إذا حُدِّد الوقت ولم يحدَّد العمل؛ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ ولم يقل: أن ترعى الغنم ثمانيَ حِجَج، لكن لا بدَّ من العلم بأحدهما، فإذا بُيِّن أحدهما فلا حرَج، ولا يلزم أن يبيَّنا جميعًا.

• هيَّأ الله تعالى لموسى ﷺ رعي الغنم؛ ليتهيَّأ لمهمَّة الرِّسالة وقيادة بني إسرائيل، وما من نبيٍّ إلا رعى الغنم؛ كما في الحديث.

• على صاحب العمل أن يقتديَ بالصَّالحين فيكونَ رفيقًا بالأجير، ولا يشقَّ عليه لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾.

• وعلى العامل أن يوفِّيَ العمل حسب العقد، ويُندب له أن يزيدَ على العقد إذا لم يشقَّ عليه.

• في الآيات مشروعيَّةُ استظهار العقود والإشهاد عليها؛ كما في قوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾.

الآيات: ﴿٢٩﴾ - ﴿٣٥﴾

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ
مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

• لمَّا أنهى موسى ﷺ قضاء الأجل الَّذي اتَّفق عليه مع صاحب مَدين، وهو عشر سنين يأجره ويرعى الغنم، وجاء وقته الَّذي قدَّره الله له، سار بأهله يقصد موطنه، وقد هيَّأه الله تعالى لما اختاره له، وذلك لأنَّ مواجهة البلاء والقيام بأعباء الرِّسالة يحتاج إلى صلابة وتهيئة على التَّحمُّل والصَّبر، فالبلاء لا تدفعه التَّصرُّفات العجلة، وأمر بني إسرائيل وفرعون قبلهم يتطلَّب مواجهةً بعلم وحكمة وصبر.

• على الأمَّة استلهام العِبَر؛ لإعداد أفرادها للمرحلة الحاسمة، فهي تحتاج إلى رجال قد تحلَّوا بالعلم والحكمة والصَّبر، لا الجهل والطَّيش واستعجال قطف الثَّمرة قبل أوانها.

• صناعة الرِّجال الَّذين يصلحون لقيادة الأمَّة إلى برِّ الأمان ليست بالأمر الهيِّن، فما أراده الله تعالى لموسى ﷺ من مواجهة فرعون، وتخليص بني إسرائيل منه، ثمَّ سياستهم وقيادتهم نحو الأرض المقدَّسة، تطلَّب مدَّة طويلة من الإعداد والتَّهيئة. فقد عاش موسى ﷺ في بيت فرعونَ يرفض الظُّلم، ويأبى حياة المضطهَدين من بني إسرائيل الَّذين ألِفَ أكثرهم الذُّلَّ، ثمَّ خرج إلى مَديَن عشر سنين متحمِّلًا الغربة، رعى فيها الغنم، وصبر على العمل، وفي ذلك إعدادٌ لمرحلة قادمة أرادها الله تعالى. وفي هذا تنبيهٌ إلى مجازفة الَّذين يريدون قيادة الأمَّة وأعمارهم لا تزال غضَّة، وتجارِبهم قليلة، عليهم أن يعلموا أنَّ ذلك لم يكن لأنبياء الله تعالى، فعامَّتهم أُرسلوا إلى النَّاس وهم في سنِّ الأربعين، فهم مع وفرة عقولهم قد مرُّوا بتجارِبَ كثيرةٍ صقلتهم، فتهيَّؤوا للبَعثة.

• ما أحوجَنا إلى فقه التَّدرُّج! مع التَّأمُّل فيما يحتاج إليه الفرد والجماعة للعطاء والكمال، فقد أعدَّ الله تعالى موسى ﷺ أربعين سنةً منذ ولادته: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه] لمواجهة الظَّالمين وتمكين المستضعَفين: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾ [طه]، وبعضهم يريد اختصار الإعداد إلى سنة أو بضعة أشهر!

• مع التَّريُّث في الإعداد والتَّدرُّج في العمل، على الدَّاعية أن يكون مستعدًّا للتَّضحية، والتَّخلِّي عن جميع امتيازات الدُّنيا من أجل عقيدته ومبدئه، ولتكن أسوته في ذلك أنبياء الله ورسله، فقد ترك موسى ﷺ حياة المترفين في قصر فرعون، وخرج إلى مَديَن فارًّا متحمِّلًا حياة الغربة ورعي الغنم.

• إنَّ قيادة الأمَّة مسؤوليَّة تحتاج إلى خبرة وممارسة، فقد تعلَّم موسى ﷺ - ومن بعده نبيُّنا ﷺ، وكذلك الأنبياء - من رعي الغنم كيف يصبرون على سياسة النَّاس، حانين عليهم، يدفعون عنهم ما يضرُّهم، مستشعرين مسؤوليَّتهم نحوهم.

• ما أحوجَ الأمَّةَ إلى رجال قد تربَّوا، وأوتوا من العلم والحكمة ما يُقيم الله تعالى بهم مصالحها، ويدفع عنها الفساد.

• وليتحقَّق ذلك فعلى الأمَّة الاقتداء بهدي السَّابقين، ممَّن اصطفاهم الله تعالى وجعلهم للنَّاس أئمَّة.

• إنَّ إعداد الدَّاعية إلى الله ﷻ لا بدَّ فيه من صبر على البلاء، وعمل ووقت، وكلَّما كان الإعداد أكثر إتقانًا، كان الدَّاعية أقوى على تحمُّل المشاقِّ، وقد مكث موسى ﷺ قبل مواجهة فرعونَ وتخليص بني إسرائيل وقتًا طويلًا، وما أضرَّ الأمَّةَ مثل المستعجلين، ومَن استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

• لقد واجه موسى ﷺ فرعون بالحجَّة والبرهان، وصابر بني إسرائيل من بعده، ولو لم يكن إعداده ملائمًا لَمَا صبر على تعنُّتهم وإيذائهم، ربَّما طاوعهم فهلكوا! أو تركهم فهلكوا! لكنَّه عالجهم أشدَّ المعالجة.

• وهذا يبيِّن حاجة الأمَّة إلى مثل هؤلاء القادة، ذوي الإيمان والعلم والحكمة والأناة والصَّبر، وإنَّما داؤها من أولئك الَّذين يُوردونها المهالك باستعجالهم وسوء تصرُّفهم، وأولئك المنهزمين الَّذين يطاوعون أعداءها، ويقدِّمون التَّنازلات بدعوى الواقعيَّة، وأيضًا أولئك اليائسين الَّذين يقنَطون من رحمة الله، ويتخلَّون عن أمَّتهم عند أوَّل محنة تواجههم: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم].

• إنَّ بعثة موسى ﷺ تشابه بعثة نبيِّنا ﷺ، وهما من أولي العزم من الرُّسل، فقد بعثا في سنِّ الأربعين، وكانت الرِّسالة مفاجئة لهما، فقد نزل الوحي على النَّبيِّ ﷺ وهو يتعبَّد بغار حراء، وأُرسل موسى ﷺ إلى فرعونَ في أثناء عودته من مَدين، وانتابهما شيءٌ من الخوف عند البعثة، لكن حدث لهما التَّثبيت بعد ذلك.

• في الآيات إشارةٌ إلى أهمِّيَّة أن تكون الدَّعوات الإصلاحيَّة من داخل البلدة ومن أهلها؛ فلذلك أثرٌ أعمق في الاستجابة، فقد أُرسل موسى ﷺ إلى فرعون، ولم يُبعث إلى من يجهله، فموسى ﷺ قد تربَّى في بيته، ثمَّ هو من بني إسرائيل، وقد عُرف بالإصلاح، وهذا ممَّا يدعو إلى التَّأثُّر بدعوته والاستجابة له؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، والآية الَّتي بعدها: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

• في الآيات من الفوائد: أنَّ الرَّجل قوَّام على أهله، يتعرَّض دونهم لما يُخشى ولا يعرِّضهم له، يذهب ويبتغي لهم، ولهذا قال موسى ﷺ لأهله: ﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾، فليس من شأن المرأة السَّعيُ للكسب خارج المنزل، وليس لها مخالطة الرِّجال، ولا يليق أن تُعرَّض للخطر، فأبقاها في مكان آمن حتَّى يرجع.

• في الآية إشارةٌ إلى أنَّ موسى هو موسى ﷺ، لم يَفْتُر أو يتغيَّر! فموسى الَّذي استغرب وقوف المرأتين دون الرِّجال تذودان الغنم، هو موسى الَّذي يصون زوجه، ويحثُّها على المكوث ثمَّ يذهب يبتغي لها ما تتدفَّأ به.

• ذهب موسى تجاه ما حسبه نارًا، يطلب شيئًا منها لحاجتهم أو يلتمس مَن يدلُّه على طريقه، فوجد أكمل الهدى وأعظم دلالة في الحياة، ونورًا أضاء له ولأهله ولقومه ولمن بعده، فأحسن الظَّنَّ بالله تجد ما لا يخطر لك على بال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

• في الآيات عِظمُ منزلة موسى ﷺ؛ فقد اصطفاه الله تعالى وكلَّمه وأعطاه من آياته المعجزة جملةً جليلة فيها من آيات ربِّه الكبرى.

• في قوله: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرًا﴾ إيذانٌ بأنَّ المسؤوليَّات الضَّخمة قد تنتاب الإنسانَ نحوها رهبة، لكنَّ الموفَّق يثبُت لها بعد ذلك.

• لا حرجَ على الإنسان فيما يعتريه من الخوف الجِبِلِّيِّ، كخوف موسى ﷺ من انقلاب العصا حيَّة.

• في قول الله تعالى لموسى ﷺ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ بِشارة له تدلُّ على حفظه، وحصول الأمن له.

• في قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ ما يفيد أنَّ وضع اليد على الصَّدر في موضع القلب قد يسكِّن من الخوف ويطمئن، وكثيرًا ما يفزع المرء إلى ذلك جِبِلَّة عندما ينتابه خوف.

• في الآيات دلالةٌ على أهمِّيَّة وضوح الهدف ومعرفة المقصد، وذلك في بيان علَّة إرسال موسى ﷺ إلى فرعون وقومه، وهو كونهم خارجين عن طاعة الله تعالى ليردَّهم إليه، وهذا هو مقصد الرُّسل وأتباعهم.

• مع وضوح المقصد، ومع علم موسى بتكاليفه وما يقتضيه قبل الرِّسالة قام بالصَّدع بالحقِّ وأداء تكاليف الرِّسالة، وكثير من الدُّعاة والمصلحين يعتذر عن قول الحقِّ وأداء الأمانة لأسباب موهومة لا ينبغي أن تعلوَ على تبليغها.

• قد تكون ثمَّة إشكالات، ومن هنا تنبع أهمِّيَّة معالجة الإشكال، والاستفسار عمَّا قد يعترض الدَّاعية أو يشكل عليه، فقد قبل موسى ﷺ أمر ربِّه، ولكنَّه شكا إليه ما يعترضه من عقبات، وطرح الحلول الَّتي يراها، فأيَّده الله تعالى وأزال ما في نفسه، قال تعالى: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص].

• إذا أقدم المرء على مشروع فعليه أن ينتبهَ لقدراته وإمكاناته، وما قد يعترضه من عقبات، وليكن صريحًا في طلب ما يتصوَّره من حلول ممكنة أو معينات قبل وقوعها؛ لأنَّه بعد وقوعها يصعب حلُّها، وربَّما صرفته عن مهمَّته.

• كثيرًا ما تبدأ مشاريع دعويَّة وخيريَّة ثمَّ تخفق؛ لأنَّ أصحابها لم يخطِّطوا لها، ولم يفكِّروا في العواقب الَّتي ستنشأ بعد بدئهم العمل، حتَّى أصبحوا مضرب المثل في الإخفاق.

• على الدَّاعية إذا بدأ بمشروع فرديٍّ أو جماعيٍّ، عامٍّ أو خاصٍّ، أن يتوقَّع ما قد يواجهه من عقبات، وأن يكون المشروع واقعيًّا، ويتصوَّر الحلول؛ لئلَّا يُفاجأ، وإلَّا فقد يخفق ويكون الخطأ والخسران ليس عليه فقط بل على الأمَّة ومن معه.

• استجاب الله تعالى لموسى ﷺ؛ فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وأعطاه الزيادة فضلًا وكرامة له؛ فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وبشارة بحماية الله تعالى لهما ومنعته وتأييده، ثمَّ قال له ولأتباعه: ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ وفي هذا بشارة لهم بالنَّصر، وقد كان، فعلى المؤمنين الثِّقة بالله تعالى، وفي موعوده، فوعده حقٌّ لا يتخلَّف.

• الانتصار في الظَّاهر: الغلبة، لكنَّ أعظم منها التَّحقُّق بالإيمان، والثَّبات عليه ولو هلكوا جميعًا كما في قصَّة أصحاب الأُخدود؛ وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف] الآيات، ثمَّ قال مكمِّلًا: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[الصف]. وقد كانت غلبة موسى وأتباعه ثباتهم على الدِّين، وتحقُّق غرضهم في الهجرة، وإهلاك عدوِّهم وجنده.

• قد جمع الله تعالى لموسى ﷺ الغلبة الحسِّيَّة والمعنويَّة، فأيَّده بالحجَّة، ونصره على السَّحرة، وأغرق فرعون وجنده، وأنجى موسى ومن معه.

• إنَّ على النُّفوس أن تطمئنَّ لوعد الله تعالى، وتثق به، فلو ظهر بعض المبطلين فإنَّه إلى حين، وأمره إلى زوال، وذلك لحكمة يريدها الله تعالى هي ابتلاء المؤمنين، وليس أغيرَ منه سبحانه على دينه وعباده.

• المهمُّ أن يجتهد الدَّاعية في تحصيل أسباب الاستجابة لدعوته؛ من الفصاحة والحجَّة، والاستعانة بالأنصار، وبذل الأسباب، والاعتماد على الله تعالى، والتَّوكُّل عليه في شأنه كلِّه.

الآيات: (٣٦) - (٤٢)

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

• جاء موسى ﷺ إلى فرعونَ وقومه بآيات بيِّنات، لكنَّهم استكبروا وردُّوا الآيات بزعمهم أنَّها سحر، مع التَّعذُّر بتقليد الآباء.

• رميُ الآيات البيِّنات بأنَّها سحر، والتَّعذُّر باتِّباع الآباء جواب تواطأ عليه المكذِّبون لرسل الله تعالى وآياته، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف].

• الاحتجاج بما كان عليه الآباء في مقابلة الحقِّ حيلةٌ يلجأ إليها أهل الباطل عند عجزهم عن مواجهة الحقِّ، غرضها استثارة الحميَّة.

• ليس كلُّ ما يُنسَب للآباء يكون صحيحًا، فقد يكون باطلًا توارثوه، وعلى الدَّاعية معالجة ما درج عليه النَّاس بحكمة وتدرُّج، حتَّى لا يستثيرَ حميَّة النَّاس، فكثيرًا ما تبدأ المناقشة لبيان الحقِّ، وتنتهي بخصومة شخصيَّة؛ بسبب الاستجابة للاستفزاز جرَّاء الطَّعن والسَّبِّ.

• لمَّا ناقش موسى ﷺ فرعونَ وملأه جاءهم بالآيات البيِّنات - وهو المؤيَّد من الله تعالى - ولم يهاجمهم أو يسفِّههم، بل لم ينفعل بطعنهم فيه ورميهم له بالسِّحر، وإنَّما قال لهم بأسلوبٍ مقنع لعلَّهم يتفكَّرون: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

• على المناظر المجادلة بالَّتي هي أحسن، والنُّصح لمُناظِره، والبعد عن الفجور في الخصومة، حتَّى يصيبَ الغرض الَّذي من أجله قامت المناظرة.

• ليحذَر المجادل من أن يُزيَّن له سوءُ عمله لسوء قصده، فيصدَّه ذلك عن اتِّباع الحقِّ؛ فإنَّ في اتِّباع الحقِّ الفلاحَ والنَّجاح وحُسن العاقبة والتَّمكين. أمَّا الظَّالمون فإنَّما يكتبون بإعراضهم عن الحقِّ ومخالفتهم له زوالهم؛ فإنَّ الباطل كان زهوقًا.

• على العاقل إذا رأى الآياتِ القاطعةَ أن يسلِّم لها، ولا يرجِّحَ الظَّنَّ أو يعترض به عليها، فإنَّ الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع.

• لقد أقام فرعون الظَّنَّ مقابل ما رأى من الآيات البيِّنات؛ فقال:﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، واتِّباع الظُّنون في مقابلة الآيات عادةُ المبطلين عند عجزهم عن إجابة الحجَّة، وعاقبتها وخيمة.

• ممَّا يدلُّ على علوِّ الله تعالى وأنه فوق خلقه، تمويهُ فرعون ببناء ذلك الصَّرح، وليس علوُّ الله تعالى اعتقادًا فرعونيًّا! ففرعونُ يجحد الإله، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، ولكنَّه يريد إكذابَ موسى فيما أخبر به من علوِّ الله تعالى، بتشغيبه هذا؛ استخفافًا لقومه.

• في الآيات بيانٌ لسوء عاقبة الظَّالمين، وعَودُ بغيهم على أنفسهم؛ حيث يُهلكهم الله تعالى ويُقبِّحهم في الدُّنيا والآخرة.

• جعل الله تعالى فرعون وملأه أئمَّةً في الشَّرِّ، ودعاة على أبواب جهنَّم؛ فقال:﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، وجعل بني إسرائيل أئمَّةً في الخير؛ فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾. فليختَر الإنسان طريقه، إمَّا التسليم إلى الحقِّ والانقياد له، وإمَّا الاستكبار والعناد، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المدثر].

• العاقل يتقدَّم فينصاع للحقِّ، ولا تغرُّه مكانته، فالتَّعالي على الحقِّ إنَّما هو إثباتٌ للنَّفس في قائمة أئمَّة الضَّلالة والباطل ودعاته، فليحذر المرء من أن تسوِّل له نفسه الباطل وتزيِّنه له، فيكون إمامًا في الشَّرِّ أو داعيًا إليه.

• إذا عُرف الإنسان بالشَّرِّ واشتَهَر به صعُب عليه الرُّجوع إلى الحقِّ، إلَّا من وفَّقه الله وسدَّده وأراد به خيرًا؛ ولذلك كان من مأثور الدُّعاء: «اللهُمَّ أرِنا الحقَّ حقًّا، وارزُقنا اتِّباعَه، وأرِنا الباطِلَ باطِلًا، وارزُقنا اجتِنابَه»[1].

• إنَّ على أئمَّة الباطل إثمًا عظيمًا، فهم دعاة جهنَّم! فعليهم وِزرُهم ومن أوزار الَّذين يضلُّونهم، وإنَّ لأئمَّة الهدى والحقِّ أجورًا مضاعفة، يرفعهم الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ويكتب لهم من أجور من اتَّبعهم ما شاء.

• ما أحوجَ الأمَّةَ إلى أئمَّة الهدى، إلى أئمَّةٍ في الخير؛ يقودونها إلى طريقه، ويبصِّرونها بما ينجِّيها، ولاسيَّما حين تعظُم الفتن ويخفِت صوت المصلحين.

(١) عزاه البهوتي في «شرحه» على المنتهى لعمرَ بن الخطَّاب ٤٩٧/٣، وأورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٤٤٤/١، وذكر العراقي في «تخريج الإحياء» أنه لم يقف لأوَّله على أصل.

الآيات: (٤٣) - (٥٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن
تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟
سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ
أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

- يرسل الله تعالى رسله بالآيات إلى عباده تبصرةً لهم وهدايةً ورحمة، لعلّهم يتذكّرون معادهم وحسابهم.

• يذكر الله ﷻ من أخبار الرُّسل وأحوال الأمم السَّابقة ما فيه معتبَر، نستفيد منه في الأيَّام الحاضرة والقادمة.

• من أعظم أسباب الهداية الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى، والنَّظر فيما يتعلَّق بالأمم الماضية، وذلك يتفاوت ويتفاضل، وقد كُرِّرت قصَّة موسى ﷺ لحاجة الأمَّة إليها.

• في ذكر الماضي معتبَر في الحاضر، ودلالةٌ مقنعة للعقلاء الَّذين يقيسون الأشياء بأمثالها، ويُلحقون الأشباه بعضَها ببعض.

• كما حدثت فترةٌ قبل رسالة موسى ﷺ، فكذلك قبل إرسال نبيِّنا ﷺ، ووجود فترة يندرس فيها العلم والهدى من مقتضَيات إرسال الرُّسل؛ ليتذكَّر النَّاس ويؤوبوا إلى منهاج ربِّهم.

• في الآيات من دلائل نبوَّة نبيِّنا ﷺ ما أنزله الله تعالى عليه من قصَّة موسى ﷺ، فذلك من علم الغيب الَّذي لا يحيط بتفاصيلِ كثيرٍ منه أهلُ الكتاب أنفسُهم.

• بيان قصَّة موسى ﷺ وما فيها، رحمةٌ من الله تعالى لأمَّة النَّبيِّ ﷺ، حريٌّ بهم أن يهتدوا بما فيها، ويأخذوا منها العِبرة والعِظة.

• قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقتضي أنَّ أسباب المصائب هي الذُّنوب والمعاصي، وأنَّ البعد عنها سببُ حلول الخير والبركات بإذن الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

• القول بأنَّ الذُّنوب والمعاصيَ لا تَسَبُّب لها في المصائب مخالفٌ لكتاب الله تعالى، وهدي نبيِّه ﷺ، وصريح العقل.

• فشوُّ الفساد والظُّلم يجلب المصائبَ والعقوباتِ الإلهيَّةَ في الدُّنيا قبل الآخرة، وهذا يقتضي وجوبَ الإصلاح، وإزالة الظُّلم، حتَّى لا تحلَّ العقوبة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود].

• ما أحوجَ النَّاسَ إلى التَّوبة لله ﷻ، وإلى استغفاره ممَّا كسَبَت أيديهم؛ فإنَّ الله تعالى لا يعذِّب المستغفرين: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال].

• بيَّن الله تعالى حال كفَّار قريش عندما دعاهم نبيُّنا ﷺ إلى الله تعالى، وقد جاءهم بالآيات كما جاء موسى ﵇ إلى من قبلهم بآيات الله تعالى، لكنَّهم كفروا ولم يؤمنوا بها مع ظهور حجَّة الله عليهم، وهكذا حال من يطلب الآيات معاندًا، يطلبها وقلبه غير متوجِّه للإيمان، فهذا لا يهتدي بها ولا تزيده إلَّا خسارة.

• في الآيات دليلٌ على جواز التَّنزُّل مع الخصم في المناقشة لبيان الحقِّ وإقامة الحجَّة والتَّحدي؛ كما في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾.

• لئن كان أصحاب الباطل لا يبحثون عن الحقِّ؛ إنَّ الحقَّ أبلج، ولكنَّهم يتَّبعون أهواءهم، فيضطربون في مناقشتهم، ويستدلُّون بما هو دليلٌ على بطلان كلامهم، كما ذكر شيخ الإسلام أنَّ كثيرًا من حُجَج أهل الباطل حجَّة عليهم.

• إنَّ من الحكمة أن ينظرَ المرء قبل أن يناقش أحدًا: هلِ هو طالب حقٍّ أو صاحب هوى؟ فإن كان صاحبَ هوى فليبتعد عن مناقشته؛ إلَّا بالقدر الَّذي يدفع به تشويشه ويقيم به الحجَّة على أتباعه؛ لأنَّه لا يريد الوصول إلى الحقِّ.

• في الآيات تنبيهٌ على أنَّ من يتَّبع هواه بغير اهتداء بكتاب الله تعالى يضلُّ عن الحقِّ ويتناقض في أقواله؛ لأنَّ مُنطَلقه أهواءٌ تذهب به يَمنةً تارة ويَسرةً أخرى!

• وفيها ترويعٌ من عاقبة اتِّباع الهوى! إذ يُخشى على صاحب الهوى خاتمة السُّوء؛ لأنَّ الله تعالى لا يهدي القوم الظَّالمين.

• إذا سمع الإنسان آيات الله تعالى ولم يستجب لها بداعي الهوى، ولم يتَّبع ما جاء به رسول الهدى؛ فإنَّه قد يُحال بينه وبين الهداية؛ لأنَّه قد فُتحت له سُبل الهداية فرفض سلوكها وحاد عنها وراغ، واتَّبع هواه فابتعد به عن الجادَّة، وحال بينه وبين الحقِّ، فلا يتوصَّل إليه بسبب إعراضه عنه مرَّات ومرَّات، راكضًا خلف هواه؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال].

الآيات: ﴿٥١﴾ - ﴿٥٥﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

• ذكر سبحانه وتعالى أنَّه بيَّن القول وفصَّله على لسان نبيِّه ﷺ، لعلَّهم يتذكَّرون ويتَّعظون؛ كشأن من اعتبر واتَّعظ بآيات موسى فآمن به.

• ثمَّ لمَّا بيَّن الله تعالى حال أهل الأهواء وعاقبتهم، أعقبه ببيان حال أهل الإيمان من أهل الكتاب الَّذين آمنوا بموسى وعيسى ثمَّ بمحمَّد عليهم الصلاة والسلام، وبيان جزائهم؛ لأنَّ أصل الرِّسالات واحد وهو التَّوحيد، والإيمان بنبيٍّ يستلزم الإيمانَ بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

• ذكر الله تعالى صفات المؤمنين من أهل الكتاب بنبيِّنا ﷺ وما استحقُّوا عليه الأجر مرَّتين، فنوَّه بصبرهم، وذلك لما تعرَّضوا له من المِحَن والبلاء في سبيل الثَّبات على الدِّين الأوَّل ثمَّ الدِّين الخاتم، ثمَّ كان من صفتهم ما ارتفعوا به عن درجة الصَّابرين، فهم ما اكتفَوا بالصَّبر ولا بالعفو، وإنَّما يدرؤون بالحسنة السَّيِّئة،

ويُحسنون بالإنفاق على المستحقِّين، ويعرضون عن اللَّغو وعمل الجاهلين، وهذه فضائل استحقُّوا بها الأجر مرَّتين.

- في هذه الآيات بيانٌ لمنهاجٍ في التَّعامل مع بعض المخالفين المجادلين في الله ورسله وآياته بغير علم ولا هدًى؛ وهو المتاركة، وهو ضربٌ من الإعراض عن الجاهلين المتسلِّطين المستكبرين الَّذين يجادلون بالباطل، ويكثرون اللَّغو، ويلجُّون في الخصومة.

الآيات: (٥٦) - (٦١)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ
(٥٦) وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا
يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا
قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا
رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ
(٥٩) وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ
هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

- يبيِّن الله تعالى أنَّ مقاليد الأمور وقلوب العباد بيده، فأبو طالب عمُّ النَّبيِّ ﷺ كان يحوطه ويمنعه، وكان وجوده عونًا له على الدَّعوة إلى الله تعالى، وقد اجتهد النَّبيُّ ﷺ في دعوته، لكنَّه لم يتمكَّن من هدايته هداية التَّوفيق، مع ما بذله من جهد في هداية الدَّلالة.

- في الآيات تنبيهٌ على مسؤوليَّة الأنبياء وأتباعهم في هداية الإرشاد والبيان، مع أنَّ هداية التَّوفيق والإلهام بيد الله تعالى وحده.

• وفيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن يفرح بهداية الضَّالِّ، ويحزن لانتهاك محارم الله، لكن عليه أن يعتدل في ذلك، ويعلم أنَّ الأمور بيد الله تعالى وحده، وهذا يقتضي الصَّبر في الدَّعوة، والتَّسليم إلى الله فيما يجريه من نتائجَ وأقدار.

• في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ما يبيِّن أنَّ محبَّة أبي طالب للنَّبيِّ ﷺ كانت طَبْعِيَّة وعن عصبيَّة له، ولم تكن محبَّةً إيمانيَّة؛ ولذلك لم يوفَّق للهدى.

• وأنَّ محبَّة النَّبيِّ ﷺ لأبي طالب هي محبَّة الهداية له على الرَّاجح، على تقدير: «من أحببت هدايته».

• في عدم استجابة أبي طالب للنَّبيِّ ﷺ دليلٌ على تفرُّد الله تعالى بأمر القلوب؛ فأعظم هادٍ من البشر ﷺ، يحاول مع رجلٍ له من العقل والحصافة وحسن النَّظر ما له، ومع ذلك لم يستجب له! ولو كان شيء من هداية القلوب بيد النَّبيِّ ﷺ لهدى عمَّه الَّذي كان يدافع عنه ويعظِّمه، وبينهما من أواصر القربى والنُّصرة ما هو معلوم، ولكنَّ الأمر ليس بيده، وإنَّما بيد الله وحده.

• وأنبِّه هنا إلى أنَّ اعتذار بعضهم لقعوده عن الاجتهاد في الدَّعوة إلى الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ اعتذار باطل، فالنَّبيُّ ﷺ اجتهد في هداية عمِّه إلى آخر لحظة من عمره! وثمَّة فرقٌ بين الاجتهاد في الدَّعوة وهداية المدعوِّين، فهذه قد تحصُل بغير كبير اجتهاد، وقد لا تحصُل مع الاجتهاد.

• على المرء أن يجتهد في الدَّعوة إلى الله تعالى بحكمة وبصيرة، ويعلم أنَّ الأمر ليس بيده: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨].

• في الآيات الرَّدُّ على المشركين وأتباعهم اليوم، الَّذين اعتذروا - ولا يزال أتباعهم يعتذرون - عن الاستجابة للنَّبيِّ ﷺ بخشية أعدائهم! وحاصل الرَّدِّ: هو أنَّ الله تعالى الَّذي أمَّنهم ورزقهم، أولى بالخشية. ومنطِق المشركين الأوَّلين هو نفسه منطق من تعذَّروا بالبعد عن كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ وخالفوا أمره مع فضله عليهم، خشيةً من أضرار غير محقَّقة، فتركوا أمره دون إكراه أو إلجاء خوفَ النَّاس!

• في الآيات أنَّ اتِّباع كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ، فيه النَّجاة وحلول الأمن والرِّزق، وأمَّا البعد عنهما فهو سبب البلاء والهلاك.

• كثيرًا ما يجتمع في القرآن ذكر الأمن والرِّزق، كما في هذه الآية، للارتباط الوثيق بينهما، ولا يدومان إلَّا لأهل الشُّكر والإيمان؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

• على من أُعطي الأمن والرِّزق حفظُهما بالشُّكر والإيمان بالله تعالى، حتَّى لا يُسلبَهُما، وله في الأمم الَّتي تتخطَّفها المصائب من حوله معتبَر!

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّ المحافظة على الأمن وأسبابه، والأخذ على أيدي السُّفهاء واجبٌ على ولاة الأمر وأهل الإصلاح، حتَّى لا يعمَّهم عقاب الله تعالى.

• وفيها أنَّ سبب هلاك القرى، وعموم المصائب، هو كفر إنعام الله بالبَطَر، مع انتشار الظُّلم والبعد عن كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ.

• التَّرف والأمن إذا خلَوَا من طاعة الله تعالى فليسا بنعمة، بل هما نقمة، وقد يكونان إملاءً واستدراجًا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف، والقلم: ٤٤، ٤٥].

• على من أُمهل ومتِّع ومُدَّ له في هذه الحياة، ألَّا يغترَّ فيطغى ويبتعدَ عن منهاج الله تعالى! بل عليه أن يعمل بموجبها وهو الشُّكر، وأن يستحضر أنَّ حصول هذه النِّعم ليس دليلًا على رضا الله ﷻ كما يظنُّه الجاهلون، بل هو متاعٌ قليل، وظلٌّ زائل يتبعه حساب عسير. ولهذا لمَّا امتنَّ الله تعالى على قريش بالأمن والرِّزق أُلحق ذلك ببيان أنَّه ما هو إلَّا زُخرُف الحياة الدُّنيا؛ ليعمل العاملون للباقية.

• قوله تعالى في ختام ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ حضٌّ على التَّعقُّل، وتقديم مقتضى النَّظر على داعي الشَّهوة، فالآخرة خيرٌ وأبقى.

• لقد مُتِّع في هذه الحياة من أصحاب الأموال مَن لم يقُم بحقِّ الله تعالى فيها، لكن كيف كانت خاتمتهم؟ على حين المؤمنُ وإن كان ماله قليلًا فهو يستمتع بما آتاه الله تعالى وَفق ما يرضيه، ويرجو ما عند الله تعالى في الآخرة.

• ختامًا، على الإنسان التَّفريق بين المقاصد والوسائل، والغايات والنَّتائج، فيشغل نفسه بالغاية والمقصِد، فإن حصلت النَّتيجة المحمودة فالحمد لله، وإلَّا فهو مأجورٌ على اشتغاله بالمقاصد المكلَّف بها. ففرقٌ بين مَن قام بطاعة الله تعالى وطلب رضاه أداءً لحقِّه، فنتج له عن ذلك فضلُه من الأمن والرِّزق ونحوه، ومَن أطاع الله تعالى ابتغاء الأمن والرِّزق، فيعرف ربَّه حال الشِّدَّة، وإن أصابه خيرٌ نسيَه.

الآيات: ﴿٦٢﴾ - ﴿٧٥﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ
وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن
جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

• السُّؤال الأوَّل يوم القيامة سؤال التَّوحيد، فليكن همُّك تحقيقه في الدُّنيا، لتتجاوز شرَّ يوم عظيم، لا يغني عنك فيه متبوعٌ أو صاحب أو تابع!

• بئس الاتِّباع وبئست الصَّداقة إذا كانت نهايتهما يوم القيامة تبرُّؤ بعضهم من بعض، وذلك مآل كلِّ اتِّباع وصداقة لم تؤسَّس على تقوى من الله ورضوان، ستنتهي بل تنقلب عداوةً ولا يبقى إلَّا ما كان لله تعالى.

• في قوله: ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ إشارةٌ إلى حرص أصحاب الباطل والأهواء على إغواء النَّاس، وتضحيتهم من أجل ذلك، فهم يدأبون لغواية غيرهم كدأبهم أنفسهم في الغواية! وعجبًا لنفوس خبيثة لا تنشرح إلَّا بإغواء الآخرين، وحريٌّ بها أن تحار جوابًا إذا أُوقفت بين يدي ربِّ العالمين.

• وفيه تحذيرٌ من أن يفرحَ الإنسان بوقوع النَّاس في الباطل والمعصية لوقوعه هو فيها؛ فإنَّ هذا من سبيل أئمَّة الضَّلال.

• في القطيعة بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، وما يكون ثمَّة من التَّبرُّؤ والتَّنكُّر ما يستدعي اعتبار العاقل في كلِّ أمر يوجَّه إليه، وكلِّ فعل يبذله لأجل فلانٍ من الكُبَراء.

• كما أنَّه في يوم القيامة يسهُل على المعبودين من دون الله تعالى، والمتبوعين في غير رضاه سبحانه، التَّخلِّي عن متَّبعيهم، فهم كذلك في الدُّنيا، وهذا مشاهَد؛ ولذلك على المؤمن إخلاصُ العبادة والعمل لله تعالى، وتقديمُ طاعته على طاعة مَن سواه.

• لو تخلَّى الأتباع عن المتبوعين ولم يصرفوا لهم شيئًا من حقِّ الله تعالى لما وُجد هذا الباطل؛ لذلك جُوزوا على ذلك بتخلِّي المتبوعين عنهم يوم القيامة، مع صحبتهم لهم في الخزي والنَّدامة، ولاتَ ساعةَ مَندَم! ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر].

• في قوله: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فتحٌ لباب التَّوبة أمام الأتباع وأعوان الظَّلمة، فلا يقنِّطنَّهم الشَّيطان، ولا يسُدَّنَّ أمامهم سبيل الرَّجعة بكثرة ما تسبَّبوا فيه من ظلم وأعانوا عليه من باطل، فالله يقبل ممَّن تاب وآمن وأصلح.

• وفيه إشارةٌ إلى قَبول من رجع عن إعانة الطُّغاة الظَّالمين، وصفوف الكافرين المعتدين، فلا يؤاخَذ بما سبق منه، ويدخل في سواد الصَّالحين.

• في التَّعقيب على هذه الآية بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المنَّ بالتَّوبة والتَّفضيل مَردُّه إليه سبحانه وحده، فهو الَّذي يختار أهله بعلمه وقدرته.

• قوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى مستحقٌّ للحمد في خلقه واختياره، وأمره ونهيه، وأنَّ مَن لا إله إلَّا هو لا يكون الحكم إلَّا له؛ وذلك من مقتضيات توحيده وعبادته، وسوف يحاسِب من حكم بغير شريعته.

• إذا كان الله تعالى هو الَّذي خلق هذا الكون، وأحكمه بدقَّة متناهية، فجعل فيه ليلًا يسكن النَّاس فيه، ثمَّ يعقبه نهارٌ ينتشرون فيه، قد تفرَّد بتدبير ذلكم، وأنعم على العباد به، وهو قادرٌ على أن يجريَ الكون على نمط تتعسَّر به حياتهم، أفلا يكون قضاؤه للبشر حكمًا يرجعون إليه ليُنظِّموا تعاملاتهم؟!

• إنَّ الَّذي نَظَّم هذا الكون بدقَّة متناهية يستحيل أن يقاربها البشر كيف تُترك أحكامه؟ وكيف يُفصَل بين حكمه الكونيِّ والشَّرعيِّ، فيسلَّم لهذا ويُعرَض عن ذاك؟! فكما أنَّه لا يملك أحدٌ أن يعترض على تصريفه للكون، ولا يطعن أحدٌ في حسن تدبيره له، وما هيَّأه للبشريَّة فيه، فكذلك لا يحقُّ لأحد أن يعترض على حكمه الشَّرعيِّ أو يؤخِّره، والَّذي أحكم كونه وما بثَّ فيه قد أحكم شرعه وما أنزله، والتَّفريقُ بين إحكامه للكون وإحكامه للشَّرع تناقضٌ ونقص في العقل.

• لقد ضرب الله تعالى هذا المثل المشاهَد بجعله اللَّيلَ سكنًا والنَّهار معاشًا؛ ليعلم النَّاس أنَّ في حكم الله تعالى الطُّمَأنينةَ والخير؛ فإنَّ من يحاول أن يخالفَ نظامه الكونيَّ لا تستقرُّ حياته، ويعيش في حَيرة واضطراب، وكذلك من يخالف حكمه الشَّرعيَّ، وهو أمرٌ مشاهَد محسوس: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]؛ لأنَّ ذلك كلَّه أمر من عنده تعالى.

• ثمَّ إنَّ الَّذي يشرك به غيره في فعله أو أمره ليست له حجَّة، ولا على فعله برهان، ولهذا بيَّن الله تعالى حالَ من أشرك معه أحدًا في العبادة أو التَّشريع أو الرُّبوبيَّة عندما يطالبهم ببيان برهانهم الَّذي صرفوا لأجله حقَّه وحده، فقال: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾، فمن تعامى عن الآيات اليوم وأعرض عن الكتاب هوًى أو استكبارًا، فسوف يعلمون غدًا أن لا برهانَ لهم، وأنَّهم قد افترَوا على الله تعالى، وخاب سعيهم، وفي هذا عِبرةٌ لمن يعتبر قبل ألَّا ينفع النَّدم.

الآيات: ﴿٧٦﴾ - ﴿٨٣﴾

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن
كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ
﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ
وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

• لمَّا بيَّن الله تعالى عاقبة فرعونَ وجنده عندما طغَوا في البلاد، وعقَّب ذلك بعاقبة المتبوعين والأتباع يوم القيامة، ثمَّ بيَّن التَّوحيد المنجِّي، عاد فشرع في بيان عاقبة قارونَ أحد أكابر المجرمين أعوان الطُّغاة، فذكر نسبه النَّسيب في بني إسرائيل، وأنَّه لم ينفعه ولم يجعله من النَّاجين، بسبب بغيه لمَّا أعطاه الله تعالى الأموال؛ ليكون للنَّاس عبرةً تذكِّرهم بنهاية المستعلين في الأرض بأموالهم، كما كان فرعون عبرةً للمستعلين بسلطانهم، وإن أُوتوا من ذلك ما أوتوا، وأنَّ العاقبة للمتَّقين.

• صاحب الملك والسُّلطان، وصاحب الجاه والمال، كلاهما قد انتهى أمره في لحظة! هذا بالخسف، وذاك بالغرق، وفي ذلك موعظةٌ وعبرة! إنَّه لا دوام لأصحاب النُّفوذ والقوى مهما بلغت قوَّتهم إذا حلَّ سخط الله، ونزل قدره بمَن حادَّ رسله واستكبر عن الإيمان به سبحانه وتعالى.

• أمَّا إذا وُجدت قوَّة المُلك مع الإيمان بالله تعالى والتَّقوى؛ فإنَّه يحفظها ويثبِّتها، وكذلك قوَّة المال إذا وُجدت مع الإيمان والتَّقوى؛ فإنَّه يُزكِّيها ويحفظها، وإذا خلتا من ذلك زالتا؛ لأنَّ الله هو الممدُّ المنعم، فمتى استُعملت نعمه في محادَّته مُحقت، فلا بقاء لقوَّة مهما كانت أمام قوَّة الله تعالى.

• في قوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد كان من بني إسرائيل، فحريٌّ به أن يتَّبع منهاج موسى ﷺ، وأن يسلكَ منهج قومه الَّذين آمنوا بموسى، ولكن قد غلبت عليه شهوة المال والرِّياسة حتَّى أصبح من أصحاب فرعونَ وعلى نهجه، فكانت عاقبته من جنس عاقبتهم.

• إنَّ مخالفة الإنسان لما عليه أهله وعشيرته من الحقِّ أشدُّ قبحًا من مخالفة مَن لم يكن منهم، ولا عهد له بهدى، أو لقبيله بصلاح.

• ويشير قوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أيضًا إلى أهمِّيَّة انتباه الأخيار إلى تصرُّفاتهم حتَّى لا يُسيئوا إلى أنفسهم أو إلى إخوانهم وأقاربهم وعشيرتهم.

• على من آتاه الله تعالى المال الاعتبارُ بحال قارون، والحذر من عاقبته، فقد أُوتيَ قارون مالًا عظيمًا، حتَّى إنَّ مفاتيح كنوزه ليثقُل حملها على الجماعة الأقوياء، لكنَّه قد اتَّصف بصفات محقَت ذلك، وهي: الفرح وبطَر نعمة الله تعالى، وجحد حقِّ الله تعالى فيما آتاه، وترك الإحسان إلى الخلق، والإفساد في الأرض، وإنكار فضل الله تعالى عليه.

• من شابهَ قارون في شيء من صفاته؛ فإنَّه يُخشى عليه من عاقبةٍ كعاقبته؛ لأنَّ سنَّة الله تعالى لا تتبدَّل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

• على العاقل أن يُقرَّ بنعمة الله تعالى عليه، وأن يحذر من أن ينسُبَ شيئًا من النِّعم إلى استحقاقه، فقد يكون ذلك سببًا في هلاكه، كما هلك قارون لمَّا قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، وقد لا يقولها نصًّا لكن يقول معناها، فيُخشى أن يُسلب النِّعمة من الله تعالى.

• على من أُوتيَ المال أن يحذر من استخدام فضل الله تعالى عليه في معصيته، كإنشاء البنوك الرِّبويَّة، وإشاعة الفاحشة، والإفساد بأنواع المحرَّمات، وإلَّا فإنَّه يُخشى عليه من عاقبة قارون، فسنَّة الله تعالى في الظَّالمين لا تتغيَّر.

• العاقل لا يغترُّ بما آتاه الله تعالى من فضله، كما اغترَّ قارون بجاهه وماله، فلم يقبل النَّصيحة، ولم تكن قوَّته شيئًا أمام قوَّة الله تعالى الَّذي خسف به الأرض وقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾، وفي هذا عبرةٌ لمن يعتبر.

• في نصيحة قوم قارونَ له يتجلَّى حِلمُ الله تعالى وإمهاله، مع رحمته وحكمته تعالى؛ إذ أوجد من يبيِّن الحقَّ وينصح للنَّاس في كلِّ زمان ومكان، حتَّى لا تعيشَ البشريَّة في ضلال، فإذا قامت حجَّته سبحانه على عبده، وذكَّره فلم يتذكَّر، ووعظه فلم يتَّعظ، استحقَّ العقوبة وباء بالخسران.

• في قول النَّاصحين لقارون: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مكان الدُّنيا اللَّائق بها منَّا أن نكونَ في حاجةٍ إلى من يذكِّرنا بها وكأنَّنا نسيناها! لا أن ننشغلَ بها حتَّى تُنسيَنا ذكر الله تعالى والدَّار الآخرة.

• في قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ما يدلُّ على أنَّ الفساد إذا شاع، وجريمة المجرمين قد ظهرت وانتشرت، فإنَّ الهلاك قد وجب، وقد يأتي بغتةً كما حدث لفرعونَ وقارون.

• حادثة قارونَ تكرَّرت قديمًا ولا تزال تتكرَّر لكثير من المجرمين، وإن لم تكن خسفًا! فهناك مَن ابتلاه الله تعالى بالنَّكد، والبلاء، والخسائر المتلاحقة، وقد تكون عقوبة الله تعالى حريقًا أو غرقًا أو جائحة أخرى.

• في الآيات تنبيهٌ على أنَّ مقاييس أهل الدُّنيا الشَّائعةَ هي ما حكاه الله تعالى ممَّا حدث من النَّاس تجاه قارون: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾، فصاحب الحظِّ عندهم هو صاحب المال وإن عدم الإيمان! وذلك مقياسٌ فاسد، لكنَّ حبَّ الدُّنيا يطغى على صوت الواعظين فلا تسمعه قلوب المفتونين بها.

• على طالب العلم أن يكون بعيدًا عن الافتتان بزهرة الدُّنيا، وإذا سعى إليها فبالضَّوابط الشَّرعيَّة، بحيث تكون الدُّنيا في يده لا في قلبه، وأن يكون لسان حاله في تعامله مع المفتونين ما قاله العالمون من قوم قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

• على طالب العلم النُّصح والإصلاح لأهل الدُّنيا؛ فإنَّ هذا واجبه تجاههم، وهو من جملة شكر الله على إكرامه تعالى له بالعلم النَّافع.

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّه كلَّما ازداد الإنسان تعلُّقًا بالدُّنيا، نقصَ من إيمانه وحبِّه لله تعالى، وإذا ضعُف تعلُّقه بالدُّنيا، ازداد إيمانه وحبُّه لله تعالى. والتَّعلُّق غير الطَّلب، فقد يطلبها المرء ليستغنيَ بفضل الله تعالى ويُحسن إلى خلقه، وهذا أمر حسن لا بدَّ منه، لكن من مزالقه الانحراف بصاحبه إلى التَّعلُّق بها إلا من عصم الله، ومن أسباب العصمة أنَّه كلَّما زاد ماله زاد إنفاقُه في سبيل الله.

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّ الاستقامة تقتضي طلبَ ما عند الله تعالى، فهو خيرٌ وأبقى، ومتى تعارض ذلك مع الدُّنيا فهي مقتضية العزوفَ عنها، وتقديم مرضاة الله تعالى، وذلك لا يكون إلَّا مع مجاهدةٍ ومصابرة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

• كما أنَّ الآخرة خير وأبقى للمؤمنين، ففيها شرٌّ مدَّخَر للكافرين المعرضين، وما حدث لقارونَ من الخسف إنَّما هو نوعٌ من العقوبة العاجلة، وأعظم منها العقوبة الآجلة على البغي والفساد وهضم حقوق النَّاس، وعذاب الدُّنيا هيِّن عند عقوبة الآخرة.

• في قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ ما يمنع العاقلَ من الاغترار أو الرُّكون إلى أيِّ قوَّة في الأرض، إذا لم تكن على منهج الله ومقتضى كتابه.

• ما أحوجَنا إلى استحضار هذه الآية، ولاسيَّما في هذه الأزمان الَّتي ضعُف فيها الإيمان بالله وحسن الظَّنِّ به، وأصبح النَّاس يتعلَّقون بالقوى المادِّيَّة، والأسباب الظَّاهرة.

• قد اعتبر الَّذين تمنَّوا ما لقارونَ بما حدث له، وأيقنوا أنَّ الله تعالى هو الَّذي يبسط الرِّزق لمن يشاء ويقدر على سلبه ممَّن يشاء، واعترفوا بفضل الله تعالى ومنَّته عليهم؛ إذ لم يستجب لهم ويجعلهم مثلَ قارون؛ إذ القضيَّة ليست شخصيَّة متعلِّقة بشخص قارون، بل بكلٍّ من كانت حاله كحاله.

• قد يدعو الإنسان ربَّه تعالى بشيء، ويكون الخير في ألَّا يعطاه؛ لذلك عليه أن يرضى ويسلِّم لحكم الله تعالى، فقد يكون ما ادَّخره له خيرًا، أو ما كفَّه من الشَّرِّ عنه أعظم، لو بدا له اغتبط بمنَّة الله عليه! كما قال تعالى مخبرًا عمَّن تمنَّى مثل ما لقارونَ بعد الخسف: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، فعلى المرء أن يسلِّم لحكمة الله تعالى في قضائه، ويعترفَ بضعف علمه وإدراكه،

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ عن جبريل ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالى: «وإنَّ من عبادي المؤمنين مَن لا يصلحُ له إلا الغنى، ولو أفقَرتُه أفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين مَن لا يصلحُ له إلا الفقر، ولو بسَطتُ له أفسده ذلك» الحديث[1].

• في الآيات بيانٌ لهوان الدُّنيا، وتأمَّل سرعة تحوُّل نظر النَّاس وشغفهم بالدُّنيا! فبالأمس تمنَّوا مكان قارون، واليوم صاروا يحمَدون الله تعالى أن لم يكونوا مثله.

• وفيها أيضًا أنَّ السَّلامة لا يعدلها شيء؛ فمَن عاش معافًى في سِتر وكَفاف، خير ممَّن رُزق من زهرة الدُّنيا ما شاء الله، ثمَّ ابتُلي بلاءً يُحوجه إلى رحمة النَّاس!

• لله كم ممَّن جُمعت له الدُّنيا، تمنَّى أن يعيشَ كأحد خدمه هانئًا مستقرًّا؛ لما رآه من البلاء والهمِّ والعناء، وإن كان النَّاس يرَونه في الظَّاهر بخلاف ذلك. وعلى خلافهم العالِمُون الصالحون؛ يقول أحد الزُّهَّاد ممَّن لا يملك من الدُّنيا شيئًا: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوف!

• في ختام القصَّة نوَّه الله تعالى بصفتين يجب أن يتحلَّى بهما من أراد الدَّار الآخرة، وهما: السَّلامة من إرادة الإنسان بعمله العلوَّ في الأرض، والسَّلامة من الفساد فيها، ولا يعصم من ذلك إلا التَّقوى.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٢٣١)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» ٥/٢٢ وغيرهما من حديث أنس، وجاء من حديث عمر رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني، انظر «السلسلة الضعيفة» (١٧٧٤).

• من إرادة العلوِّ طلب الثَّناء، وحبُّ الظُّهور، والافتتان بتقبيل الرَّأس واليد واتِّباع النَّاس له في المسير، وهذا ليس خاصًّا بأهل المال، فقد يكون في بعض أهل العلم أو السُّلطان وغيرهم، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ «ما ذئبانِ جائعانِ أُرسِلا في غنَمٍ بأفسدَ لها من حِرصِ المرءِ على المالِ والشَّرفِ لدينه»[1].

• وعلى كلِّ عاقل أن يتفقَّد نفسه ليتحقَّق استقامتها وسلامتها من الآفات المهلكة؛ حتَّى ينال رضا الله تعالى، والدَّار الآخرة، وحتَّى تكون له العاقبة في الدَّارين.

• وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ طرد لليأس من نفوس اليائسين، واستدعاء للثِّقة بالله ربِّ العالمين، ودعوة إلى حسن الظَّنِّ به، ودفع اليأس والتَّشاؤم، وفي أحداث القرون الخالية والتَّالية عِبَر! فهذا ختام قصَّة قارون من بعد فرعون؛ وقد أوتوا من القوَّة والقدر والدُّنيا ما أوتوا، ومع ذلك كانت العاقبة عليهم، أزالهم القويُّ سبحانه ومكَّن للمستضعفين في الأرض.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣/٤٥٦، والترمذيُّ في «سننه» (٢٣٧٦)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٣٢٢٨)، وصحَّحه الألباني في «التعليقات الحسان» ٥/١٦٩.

الآيات: ﴿٨٤﴾ - ﴿٨٨﴾

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

• في هذه الآيات دلالةٌ على عظيم فضل الله تعالى ورحمته وعدله؛ حيث جازى على الحسنة بخير منها، وأمَّا السَّيِّئة فجزاؤها سيِّئة مثلها؛ كما قال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، وهذا يبعث في نفوس المؤمنين عظيم الرَّجاء، ويملأ جوانحهم حسنَ ظنٍّ بالله تعالى، يعتلج في أثنائه خوفُ المجازاة على السَّيِّئات.

• وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ في هذه السُّورة بتمكينه وإعادته إلى البلد الأمين الَّذي أُخرج منه وصُدَّ عنه، وهذا يتضمَّن بشارته بكسر الكافرين ونصرة المؤمنين، وفي ذلك مناسبةٌ لموضوع السُّورة، فكما أهلك الله تعالى فرعونَ وقومه ونصر موسى ومن معه، ومكَّن للمستضعَفين في الأرض، فإنَّه سبحانه سيمكِّن لأتباع خير المرسَلين وينصرهم بعد حين.

• ذَكَّر الله تعالى بعظيم فضله وسابغ منَّته بإنزاله الوحيَ على نبيِّه ﷺ دون أن يترقَّبه؛ ونبَّه على أنَّ تلك المنَّة تقتضي شكرًا لها، ومن شكرها ألَّا يكون ظهيرًا للكافرين، وألَّا يواليَهم ويعينَهم ويرفدَهم، وألَّا يصدُّوه عن تبليغ آياته، وألَّا يداهنَهم، وَلْيَدْعُ النَّاس إلى ربِّهم ﷻ، وهذا ما ينبغي لأتباعه ﷺ.

• على المسلم أن يُعرِضَ عن كلِّ ما يصدُّ عن ذكر الله تعالى، واتِّباع آياته، ويحذَره حتَّى لا يُسلبَ النِّعمة، وتحلَّ به النِّقمة.

• خُتمت السُّورة بتقرير أعظم مطلوبٍ بُعث لأجله الرُّسل ونازعهم فيه الطُّغاة المكذِّبون، ناهيةً عن أعظم الذُّنوب وهو الشِّرك، داعيةً إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالألوهيَّة، فكلُّ ما سواه من المعبودات باطل، وكلُّ قويٍّ غيره زائل، لا حكم لأحدٍ مع حكمه.

فليمضِ أصحاب الدَّعَوات في طريقهم على هدًى وثقة وطُمَأنينة بنصر الله تعالى وتمكينه، ونيل فضله ورحمته، وليحذر الظَّالم مآل الظَّالمين قبله! كفرعونَ وهامانَ وقارون، وليعلَم أنَّ بعد الجدَث حدثًا، وبعد الموت بعثًا ونشرًا، وجزاء فثوابًا أو عقابًا.

والحمد لله ربِّ العالمين.

خاتمة

الحمد لله أوَّلًا وأخيرا، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرا، أمَّا بعدُ، فمن خلال الوقَفات المقتضَبة مع السُّورة تبيَّن أنَّها كنزٌ من الدُّروس والعِظات والعِبَر، حريٌّ بنا أن نلتزمَ توجيهاتها في واقعنا؛ ليتحقَّق لنا خير الدُّنيا ونعيم الآخرة.

إنَّ سورة القَصَص - كما رأينا - قد فصَّلت كثيرًا من أخبار موسى أحد المقدَّمين من أُولي العزم من الرُّسل، وقد ثَنَّى الله ذكره، وفرَّق أخباره في القرآن كثيرًا، حتَّى قال بعض السَّلف: «كاد القرآن أن يكونَ كلُّه لموسى»[1]. وقد بُسطت أخبارُه في مواضعَ أكثرها تفصيلًا ما جاء في ثلاث سور؛ سورة الأعراف، وسورة طه، وسورة القَصَص. أمَّا سورة الأعراف فهي أوفى بأحواله مع عامَّة النَّاس؛ أهل مصر، وقومه من بني إسرائيل، فقد كان لهم من الذِّكر والذَّمِّ حظٌّ وافر. وأمَّا سورة القَصَص فأوفى بنشأته وحاله مع فرعونَ وملئه المتكبِّرين. وأمَّا سورة طه فتوسَّطت بينهما، فذكرت طرفًا هنا وطرفًا هنالك.

والمقصود: أنَّ سورة القَصَص من أوفى تلك المواضع الَّتي بسَطت خبره؛ إذ فيها ذكرُ عصره ومِصره وواقعه السَّياسيِّ، ثمَّ خبره ﷺ منذ ولادته،

(١) انظر: «الإتقان» للسيوطي ١/١٥٧.

وظروف تلك السَّاعة، مع شيء من أحواله الاجتماعيَّة، إلى خبر شبيبته وبعض مجرياتها التَّامَّة عن شخصيَّته، والمبيِّنة لما اقتضَته بعد ذلك من سفرٍ وإقامة في بلاد مَدين، فُصِّل المهمُّ منها، ثمَّ خبر عودته وتفاصيل بعثته، والوصف الدَّقيق لها من مبدئها، وكأنَّ النَّاظر إليه يراه يغادر أهله، فيتَّجه صاعدًا صوب النَّار جنوبًا، يمينَ شاطئ وادٍ منحدِر من جبل الطُّور غربيِّ الوادي، قاصدًا شجرةً في أصله، حولها الضَّوء السَّاطع؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثمَّ تمضي الآيات في وصف بعثته، ثمَّ محاجَّته فرعون، وما جبَهَه به هو وجنده ووزيره، وكيف كانت عاقبتهم، وذكر في أثناء ذلك ما يقيم الحجَّة على نبوَّة محمَّد ﷺ، من إخباره بالغيب الَّذي لا يعلم تفصيله إلَّا نبيٌّ، ولا حجَّة للمعرِض من أهل الكتاب أو المشركين بعدها إلَّا اتِّباع الهوى لا الهدى!

وفي سياق ذلك لم يغمِط المؤمنين الأوَّلين حقَّهم، فذكرهم وأشاد بهم، وذكر من طريقتهم وحالهم ما فيه عبرةٌ للمؤمنين من هذه الأمَّة، أوَّلهم قبل الهجرة بمكَّة، وآخرهم إلى قيام السَّاعة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثمَّ عاد السِّياق إلى تسلية النَّبيِّ ﷺ في صدود من صدَّ عنه، أو لم يؤمن به من الملأ الآخَرين؛ أعني عِليةَ قريش قريبهم وبعيدهم، وفنَّد ما يتحجَّج به بعضهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾، وبيَّن أنَّ العطب في اتِّباع الهوى لا الهدى! مع التَّذكير بيوم المعاد، وعود الزَّعامة الصَّادَّة عن الإيمان فيه إلى ندامة يتبرَّأ أصحابُها من أتباعهم.

ثمَّ ختم الموعظة بامتنانه سبحانه على عباده بشيءٍ من نعمه الموجبة لحمده والإذعان له حبًّا وطمعًا، وكذلك خوفًا ورهبًا أن يسلبَها العباد.

ثمَّ ختم بقصَّة قارونَ الذي كان من قوم موسى؛ لِما فيها من العِبَر المتعلِّقة بسياق أخبار الملأ مع موسى ﵇، ولِما فيها من المناسبة لحال نبيِّنا ﷺ، فقد كان في قرابته ﷺ من الملأ مخالفون له، إمَّا مكذِّبون معاندون: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد]، أو آخَرون يحبُّ هدايتهم وهم معرضون ضنًّا بملَّة الآباء!

وفي ذيلها جاء التَّنويه بأهمِّ ما سيقت له القصص، وما ينبني عليه من المراد الواجب التزامه، وهو أنَّ نصر الله آتٍ، فلئن أُخرجت اليوم لتعودَنَّ غدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ظاهرًا منتصرًا، فاحذر أمورًا، وافعل مأمورًا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٨﴾.

إنَّ العدوَّ الكافر الَّذي أخرجك من دارك لا يكون لك نصيرًا، فلا تكن له ظهيرًا، ولا يصدُّونك مجتمعين عن آيات الله الشَّرعيَّة الَّتي أنزلها إليك، بلِّغها واعمل بمقتضاها، مجانبًا المشركين وشركهم.

فهذا سبيل الفلاح مختصرًا، وتلك العاقبة لمن التزمه، فمَن طال به العمر أدرك الوعد، ومن اقتطع عمره على الإيمان أدرك المنى! فالكلُّ راجع إلى الحكَم العدل الَّذي يجازي المحسن على إحسانه، ويضاعف الأجر لأهل رضوانه.

أسأل الله أن يقرَّ أعيننا بظهور دينه، ونصرة كتابه، وعلوِّ سنَّة نبيِّه ﷺ، وأن يستعملنا في ذلك، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحابته أجمعين.

الفِهرس